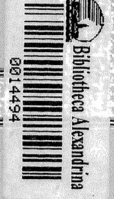
المكتبة الجامعية

صفحات مطوية
من تاريخ عرب الجاهلية

تأليف

الدكتور منذر معاليقي



دار ومكتبة الهلال

صفحات مطوية
من تاريخ عرب الجاهلية

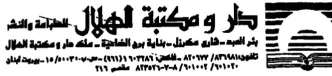
صفحات مطوية
من تاريخ عرب الجاهلية

تأليف
الدكتور منذر معاليقي

دار ومكتبة الهلال

الطبعة الأولى

١٩٩٥




إهداء

إلى من ربياني صغيراً

وعلماني كبيراً، وفتحا لي الدرب اليسيرا

وباركا لي الزوج والبنينا

إلى والدي الحبيبين

أتقدم بأسمى آيات الشكر والعرفان

هادياً هذا الكتاب، عربون محبة ووفاء

منذر

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

راودتني أفكار عديدة قبل أن أخطّ هذا الكتاب، وتردّدت كثيراً قبل أن أسوّغ مرور فكرة كتابة هذا المؤلّف، لكثرة الدارسين للحياة الجاهلية، وأوجهها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

في البدء ظننت أني سأظل أسير ديْدنهم، لا أخرجُ عن سلوكهم ولن أتمكن من أن أضفي شيئاً جديداً يستوجب البحث، لكنني آثرت الإكثار من مطالعة المؤلفات الجاهلية ومصنّفاتها التاريخية والحضارية، ورأيت أنّ جوانب عدّة، لم تنل حقها من ريشة المحقق والمؤرخ. فآليت على نفسي الانكباب على دراسة فكرية هذه المرحلة، وأنا المولع بمعرفة حقيقة هذا الشعب ـ أصوله مفاهيمه مآثره ـ الذي خصّه الله سبحانه وتعالى بصفات عالية، وقيم سامية، ومفاهيم حضارية، تعبّر عن أصالة هذه الأمة وأهمية دورها الريادي والإنساني في بلدان العالم كافة، والذي يخوض منذ فترات قديمة ولا يزال صراعاً مريراً، تعدّدت أوجهه السياسية والفكرية، واختلفت أساليبه النضالية، يحول دون القوى المغرضة المتربصة لشعوب المنطقة، ويأخذ بنهضة أبناء الأمة ودورهم، في تبيان الحقيقة وبناء المستقبل، الذي ينطلق من موروث حضاري وتراث إنساني مشرق، والذي يتطلّب إعداد إنسانه إعداداً كاملاً، يزخر بمقوماته الإنسانية المخزونة، وبثقافته التاريخية الموروثة، التي تؤكد صوابية مواقفها الخيّرة وعظمة قوتها، وبخاصة عندما تطرح المواجهة والتصدي من خلال تثقيف أبناء البلاد بلغة الأمة وأدبها وحضارتها، وعبر تاريخها الضارب بأمجاد القرون والأزمنة، وما سجله من قيم وفضائل، ما زالت إبداعاته شاخصة عند مختلف الأمم والقارات.

إن المنطلقات الرئيسة التي اعتمَدَتها أمتنا في فجر تاريخها القديم، شكلت المرتكزات الحضارية لبناء المجتمع الأمثل، وإقامة دولة الحرية والعدالة، وصارت الصورة المثلى للحياة البشرية، التي اهتدت بمختلف الرسالات والمعتقدات التي عرفها العالم، والتي أضحت محط أنظار الإنسان في مختلف بلدانه وأصقاعه، وأصبحنا نرى من خلالها ضرورة استمرارية هذه الحضارة، ومواكبتها للإشعاعات الجديدة والإبداعات الخلاقة، لتواصل هذه الأمة رسالتها، وتؤدي دورها الريادي ووجودها الإنساني الخلاق.

إن موضوعات هذا الكتاب تمثّل خطاً جديداً في معالجة قضايانا المصيرية والوجودية، لأنها حاولت أن تستقرىء شوامخ الأحداث، وتقف عند شواهدها الإيجابية، التي تصلح لإقامة بناء حضاري، ينسجم مع تطلعات الأمة، ويتوافق مع أهدافها النبيلة، في إقامة مجتمع الإنسان، انطلاقاً من إيماني بحتمية إعادة كتابة تراث هذه الأمة، وتنقية صفحاته مما اعتورته من إضافات مشبوهة، وزيادات ملفّقة، يمجّها المنطق والعلم، ويرفضها التحليل الرصين، وقناعتي المبدئية بأن التركيز على الأحداث الجسام للأمة، والوقوف عند مرافقها التاريخية والحيوية، أجدى بكثير من التحدث عن السلبيات، وتناول الأخطاء والثغرات التي اعترضت مسيرتنا الطويلة.

إني إذ انكببتُ على كتابة هذه الصفحات البيضاء من تاريخ أمتنا، فلأُجَدّد العهد والثقة، بأن أمةً، حملت مثل تلك المبادىء والمفاهيم في العصر الجاهلي، وطورتها في العصور العربية الإسلامية التالية، بعد أن قضت على العناصر السلبية منها، وغربلت المفاهيم الخاطئة، وأعلتْ من سمة العقل والمنطق، جديرةٌ، بمواصلة طريقها الحضاري ـ الفكري والعمراني ـ ومتابعة نضالها الجهادي والكفاحي، على مختلف الصعد الاجتماعية والأدبية والحضارية، حتى تتحققَ صورة الله في خلقه، وتتجسدَ رؤيته في أقانيم المحبة والسعادة.

٢٠ ـ ١١ ـ ٩٤

د. منذر معاليقي

مقدمة

إذا كانت أوروبة الحديثة عُرفت بأمجادها الزاهرة وحضارتها المعرفية الواسعة، في القرون الخمسة الأخيرة، فإن الأمة العربية شقت طريق العلم والثقافة لعصور قديمة، ومنذ نشأة المجتمعات الإنسانية، واستطاعت في السنوات الثلاثمائة قبل الميلاد أن تقيم حياة وتتبنّى قواعد، ما زال العالم المتمدن والمجتمع الإنساني برمّته بحاجة إلى مواكبة أعمالها، ومواصلة أنظمتها، والتطبع بأحوالها والأخذ بقيمها.

إذا كان عرب القبائل والعشائر، عرب الجاهلية والبدائية، تمكنوا من حماية مناطقهم وأمنوا نظاماً احترفه أبناؤه من دون تفرقة أو تمييز، وحققوا عادات وعبادات رسّخت الأخوة والسعادة، فإنّ عرب اليوم مطالبون وهذه ميّزاتهم التاريخية وقسماتهم الحضارية، أنْ يوفروا لشعوبهم الأمن والرخاء، وأن يبيّنوا لإنسان التكنولوجية الحديثة، أنّ رقي الإنسان أو تقدّمه، يُقاسُ بأعماله الخيرة وأفعاله الإنسانية، وليس بهبوطه فقط على سطح القمر وتلذّذه بمبتكرات القتل ومنجزات الإبادة.

تحدّث عن حضارة عرب الجاهلية كثير من المؤرخين واعتبروها من الحضارات الإنسانية الهامة، فقال عنها المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون «يكفي أن نذكر أنه كان للعرب قبل ظهور محمد ﷺ آدابٌ ناضجة ولغةٌ راقية، وأنهم كانوا ذوي صلات تجارية بأرقى أمم العالم، وأنهم استطاعوا في أقل من مائة عام، أنْ يقيموا حضارةً من أنضر الحضارات التي عرفها التاريخ، وأشار لوبون إلى أننا كلّما أمعنّا في دراسة حضارة العرب وكتبهم

العلمية وفنونهم، ظهر لنا أنّ العرب هم الذين منحوا أوروبا المدنيّة ـ مادة وعقلاً وأخلاقاً ـ وأنّ التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير»[1].

يجب أن ندرك أنّ حضارة العرب في العصر الجاهلي لا تقتصر على اللغة والشعر فقط، بل تعدّت ذلك وشملت مجالاتٍ واسعةً في البناء والعمران، في تشييد المدن وإقامة القصور، وبناء المعابد والسدود، وإنشاء الدول، وممارسة التجارة والصناعة والزراعة، إضافة إلى معرفتهم الأديان السماوية والمعتقدات الوضعية، وما كان فيها من قواعدَ ونسكٍ ومناهج.

إذا كانت حال أمتنا على هذه الصورة من المفاهيم والمآثر التاريخية، وإذا كانت مثل هذه الأمة قد ورثت عظمةَ هذا المجد القديم والتراث الكبير، فإنّ عليها أن ترفده بمجد جديد، وتواصله بعظمة جديدة، لتحافظَ على إرثها وتواكبَ تقدمها، فلا ينفع القوم إذا كان الأبناء في غفلة. وصدق قول الشاعر:

يا قوم إنّ لكم في عزّ أوّلكمْ إرثاً، قد أشْفَقْتُ أن يودي فينقطعا
وما يردُ عليكم عزُّ أوّلكم إن ضاع آخرُهُ أو ذَلّ فاتّضعا

إن حضارتنا العربية في الجاهلية سفرٌ حافلٌ بالمواقف والقيم، لا ينفد ثراء عيونه الفيّاض، ولا تتوقف عن وروده الأجيال، لأنه جزء من الحاضر المشرئب نحو المستقبل. فمن هذا التراث يجب أن نتعلم أمثولة الحاضر، ونبني آفاق المستقبل. ويكفي هذا الماضي ـ التراث ـ أنه على مدى العصور والأزمنة، تعاورته أقلام كثيرة، مؤيدة ومعارضة، منصفة ومجحفة، لكنه ما زال كالطود الشامخ، صالحاً للبحث والتحليل، ومتفاعلاً مع وجود الثقافات والحضارات الأخرى، المتحركة باستمرار والمتطورة دوماً لصهر حضارة اليوم وبلورة حياتها الجديدة.

(١) أنور الجندي: شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي ـ المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٣ ـ ص ٧٠.

ونظراً للمكتشفات العلمية الحديثة التي أكدت أنّ العرب قد لعبوا دوراً بارزاً في تاريخ الحضارة الإنسانية، واستطاعوا أن يساهموا في إبراز نظريات إنسانية وعلوم طبيعية، فإنّ الضرورة العلمية توجب أن يتابعوا دراساتهم، ويستثمروا طاقاتهم لمواكبة مستحدثات العصر والتقدم الإنساني.

وهذا ما دفعنا إلى تدريس مادة ـ حضارة عرب الجاهلية ـ لما فيها من مفاهيم وعقائد، يصعب للمنصف الرزين أن يحيط بمكنوناتها، ويلمّ بذخائرها، ولنجدد الثقة ونؤكد أن أمة هذه ميزاتها، لا يمكن أن تموت، وأن شعباً خصّه الله بهداية رسالته لا يمكن أن يقهر، وأنّ ظلماء الليالي واشتداد العواصف الهوج، ما هي إلا غيوم ملبّدة، لا تلبث أن تنقشع سحبها، وتزول ضبابيتها، وتتفجّر ينابيعها بخطى باسمة ونظرات عامرة. على الرغم من الأقاويل المغرضة، والمواقف المتعصبة والآراء المتشنجة، والأحكام الجائرة التي أتت من قبل الحركات الاستشراقية، والمؤسسات التغريبية والتجمعات الطفيلية الهامشية، التي تفتعل الأحداث وتشوّه الحقائق. خاصة وأن الموضوع الذي بين أيدينا هو موغل في القدم، وتاريخه يكاد يكون مجهولاً لسببين رئيسيْن. الأول يعود لانقسام الأمة سياسياً وعدم وحدة أرضها جغرافياً. والثاني لعدم معرفة سكان المنطقة آنذاك القراءة والكتابة، واعتمادهم على نقل الأخبار شفوياً، اللهمّ إلا أطرافاً من مملكتي سبأ ومعين اللتين نُقشت آثارهما وبقيت ماثلة إلى اليوم.

مدخل حول أصل العرب

- عروبة القحطانيين والعدنانيين
- إشكالية القرابة بين القحطانية والعدنانية

مدخل حول أصل العرب

تعدّدت إجابات علماء التاريخ والأنتروبولوجيا حول أصل أجناس البشرية، وتضاربت نظرياتهم، لعدم وجود دلائل ماديةٍ، وقرائنَ علميةٍ، تبتّ في كثير من القضايا الحيوية، البيئية والجغرافية، التي تشكلّ دلالةً أساسية، مادية ومعنوية، على مدى تفاعل الإنسان بماضيه، وارتباطه بتراثه، الذي إذا ما أدرك غناه وكشف أبعاده، ارتقى إلى مستوى فكري متقدم، وتمكن من مواصلة دوره في بناء نهضته وتطوّر مجتمعه.

واليوم نقصد بكلمة عرب، سكان الجزيرة العربية والبلاد المجاورة لها، كالعراق والشام ومصر والسودان والمغرب، ممنْ ينطقون بلغة الضاد، التي اقتصرت قبل بدء حركة الانتشار الإسلامي، على سكان الجزيرة وما يليها من مشارف الشام والعراق وشبه جزيرة سيناء، لأنّ أهل العراق والشام كانوا من السريان والكلدان والأنباط واليهود، وأهل مصر من الأقباط، وأهل المغرب من البربر واليونان.

على أنّ العرب قد ميّزت بين الأعرابي صاحب النجعة وارتياد الكلأ، وتتبّع مساقط الغيث، والعربي الذي نزل الريف واستوطن المدن والقرى، ومارس الزراعة والتجارة وغيرها من أعمال الحضر، بدليل أنّ القرآن الكريم استعمل هذا التفريق عندما قال في البدو ـ الأعراب ـ **﴿الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً﴾**[1] وأن الأعرابيّ إذا قيل له يا عربي فرح، في حين أنّ العربي إذا قيل له يا أعرابي، غضب لذلك وانفعل.

---

(١) سورة التوبة، آية ٩٧.

ويعتقد بعض المؤرخين أنّ كلمة عرب مشتقةٌ من أصل سامي قديم، وأنّ سكان الرافدين قد أطلقوها على سكان البادية أو الجزيرة بسبب جغرافية البلاد وموقعها الغربي منهم، وعرفت لذلك بأرض عريبي، أو عرب التي تحمل معنى «الغرب» في بعض اللغات السامية.

ويُقال انّ لفظة عرب تعود إلى يعرب بن قحطان، أوّل من سجّع بالعربية وبالتالي أوّل مَنْ أنطق الله لسانه بلغة العرب، وتكلم بأفصحها وأبلغها، فنسبت اللغة العربية إليه، واشتقت من اسمه.

ردّها بعض الكّتاب إلى فعل «أعربَ» الذي يعني في اللغة، الإفصاح في القول، والإعراب عن الشيء وبيانه، انطلاقاً من القول: «أعرب الرجل عن حاجته»، أي أبان، وأعادها بعضهم إلى غلبتهم اللغوية وبلاغتهم البيانية.

إلا أنّ بعض المؤرخين أرجع الكلمة إلى اسم عربة ـ مكة ـ وهي منطقة في تهامة، نشأ فيها أولاد إسماعيل ونسبوا إليها، وسكنتها قريش، ومنها انتشر العرب في داخل الجزيرة وخارجها. لكنّ فريقاً رأى أنّ كلمة عرب ذات صلة بكلمة ـ عرابا ـ العبرية التي تعني الأرض المظلمة، أو بكلمة عيريب التي تدلّ على الفوضى والحياة غير المنتظمة[1]، وأنّ المهد الأول للجنس البشري هو وادي الفرات أو بلاد ما بين النهرين، التي منها تفرقوا وانتشروا في أرجاء الأرض، فاستوطن الأشوريون والبابليون العراق، والآراميون الشام، والفينيقيون شواطىء سورية، والعبرانيون فلسطين، والعرب الجزيرة العربية. وأعاد بعضهم أصل الساميين إلى بلاد الحبشة، ومنها عبروا إلى شبه جزيرة العرب، عن مضيق باب المندب، ومنها تفرقوا في الأرض، وتوزّعوا في الحجاز ونجد والبحرين والعراق ونجد وفلسطين. . .

ومهما يكن المهد الأوّل لأصل نشأة عرب الجاهليّة، الذي لا يزال مسألةً غامضة يجب تركها حتى تتكشّفَ حقيقة الآثار العربية والأشورية

(١) نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دار الفكر بيروت ١٩٧٥ ص ٤٦.

والبابلية، إلاّ أننا نميل إلى الاعتقاد بأن شظف العيش وقلة المورد وقساوة الحياة البدوية، دفعت العرب وشعوبها إلى الهجرة، وكانت عند تفرّقها تتكلّم لغةً متشابهة، تغيّرتْ ألفاظها وتطوّرتْ تراكيبها وتفرقّت إلى لهجات مختلفة، بمقتضى قاموس النشوء والارتقاء.

ويبدو أنّ الكتابات الحديثة توصلتْ إلى إيجاد قرابة بين العرب وبقية الشعوب السامية ـ البابليين والعبرانيين والآراميين ـ بسبب طباعهم الخلقيّة وصفاتهم البدنية المتشابهة، كلون شعرهم الفاحم ولحاهم الكثة، وغيرهما من الوثائق الأنتروبولوجية والخصائص الفيزيائية، التي تقوّي فكرة الانتماء إلى الأمة الواحدة ذات القواسم المشتركة، والمفاهيم المحددة، بدليل أنّ سبنجلر رأى أنّ جميع الساميين عرب، وأنّ الأقوام المنسوبة إلى العرق السامي، هاجرت من الجزيرة إلى أرض خصبة، بسبب قحط المطر وجدب الحياة[1].

هذا عن أصل العرب موقعاً ولغة ونسباً، أمّا عن مفهوم العرب كأمة لها خصائصها القومية المميّزة عن سائر الشعوب والأمم، فإنّ الشعر الجاهلي الذي ألّم بحياة العرب، لم يستطع أنْ يعبّر عن هذه الميزة القومية، بسبب تغلب العنصر القبلي، الذي كان يحول دون قيام دولة الجماعة، في حين أنّ الإسلام وما عُرف عن ثورته الإسلامية، التي صهرت الجميع في وحدة متراصة، تمكّن من ملء هذا الفراغ، وأتتْ تعابيره القرآنية مصدقةً لهذا الحسّ القومي الجديد، وكان المصدرَ الوحيد الذي تناول هذه الصيغة في آيات عدة من سوره المختلفة. ففي سورة الزخرف يقول تعالى: **﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾**[2] وفي سورة الشورى **﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً. . .﴾**[3] ويقول تبارك جلّ علاه: **﴿كتاب فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾**[4]. ذلك أنّ أمّة العرب إبان الدعوة الإسلامية كانت قد

---

(١) علي حسنين خربوطلي: تاريخ الموحّد للأمة العربية، الهيئة المصرية العامة ١٩٧٠ ص ٢٠.
(٢) سورة الزخرف، آية ٢.
(٣) سورة الشورى، آية ٦.
(٤) سورة فصّلت، آية ٣.

اتسمت بمواصفات الأمة القومية، وسادتها مفاهيم مشتركة، ودانت قبائلها بسيادة لغويّة واحدة، تجلّت في وحدتها وبناء مجتمعها، على الرغم من المشككين الذين نفذوا من خلال تقاتل قبائلها القحطانية والعدنانية، ليفرّقوا بين أهلها، ويبثّوا فكرة التجزئة والانقسام، ويؤكدوا حالة التفكك والانحلال.

عروبة القحطانيين والعدنانيين:

عرفت الجزيرة العربية منذ أقدم العصور جماعة من العرب القحطانيين التي نزحت من أراضي الفرات - بابل - إلى اليمن واتخذتْ منازلها فيها. وجعلت النسّابةُ عربَ اليمن من مبتكري العروبة ومرسّخي أصولها، على الرغم من أنّ يعرب بن قحطان أو والده قحطان كان أوّل مَنْ هاجر إلى اليمن، وأنه من أعظم ملوك العرب، وأنه أوّلُ مَنْ حيّاه قومه بتحية الملوك[1]، وأنه أوّلُ مَنْ تكلّم باللسان العربي ونطق بالعربية وتكلّم لغتها، بدليل قول حسان بن ثابت:

تعلّمتم من منطق الشيخ يعربٍ أبينا، فصرتم معربين ذوي نَفْر
وكنتم قديماً ما لكم غيرَ عُجْمةٍ كلامٌ وكنتم كالبهائم في القفر[2]

وعُرفتْ جماعته بالعرب المستعربة، لأنهم عندما نزلوا بلاد اليمن، تقربوا من أهلها، وكانوا من العرب العاربة - البائدة - واقتبسوا عربيّتها وأصبحوا كما يقول الدكتور عبد العزيز سالم هم الراسخين في العروبة والمبتدعين لها[3]. وسُمّوا بالعرب الجنوبيين نسبة إلى موقع بلادهم، ودعوا بالقحطانيين نسبة إلى جدهم قحطان.

ويبدو من قراءة النقوش الأثرية المكتشفة على الأبراج والهياكل، أنّ

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٦ ص ١٧٠.

(٢) بطرس البستاني: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مكتبة صادر بيروت ١٩٥٣ ص ٩.

(٣) عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، عصر ما قبل الإسلام، دار المعارف مصر ١٩٦٧ جـ ١ ص ٨٤.

كتابة مملكة عربّ الجنوب الحُمَيْرية جاءث بالخط المسند، الذي يُعتبر من أهم أعمال الملك حُمَيْر، والذي قيل إنه استخدمه لأنه أسند إلى هود عن جبريل، أو لرواية آت في المنام قال له: «إنّ الله اصطفى هذا الخط للقرآن يأتي به محمد»[1]، وأنّ لهجات البلاد ولغتها قريبة من العربية المتناولة عند عرب الشمال.

ويلاحظ أنّ بلاد اليمن القحطانية أخذت في الانحطاط حين عجز أهلُها عن إصلاح سد مأرب[2]، الذي أقاموه لحفظ المياه وتنظيم الري، والذي حوّل أراضيهم إلى جنات، فصّل آياتها سبحانه تعالى في كتابه الكريم من سورة سبأ، وإنّ دولتها اضمحلتْ وتشتّت قومها يوم تفرقوا أيدي سبأ، في شتى أنحاء جزيرة العرب، التي أمّت مناطقها مختلف قبائل عرب الجنوب ومنها قبيلة جُرهم ـ أولاد قحطان ـ التي نزلت مكة، وسكنت مع هاجر وابنها إسماعيل، الذي تزوّج منهم وأنجب اثني عشر ولداً، تفرّعت منهم بطونٌ كثيرة، وتعلّم وأبناؤه العربية وسمّوا بالعرب المستعربة، لأنّ إسماعيل كان يتكلم العبريّة، وبعضهم يقول السريانية، وعُرفوا بجمهور العرب من البدو والحضر، الذين صهرتْهم الحياة، ومزجتْ بين طباعهم، ووحّدتْ طرق معيشتهم، وجعلتهم فيما بعد أمةً واحدة، متجانسةً في دولة الإسلام.

ولذلك يذهب أنصار القحطانية إلى أنّ الجنوبيين هم أوّلُ مَن اصطنع العربية، وانّ إسماعيل كان يتكلم العبرانية عندما نزل مكة، لكنّ زواجه بإحدى العربيات، من قبيلة جُرهم اليمنية، وهي ابنة مضاض بن عمرو الجرهمي ـ صاحب مكة ـ جعله يتكلم العربية هو وأولاده الذكور الإثنا عشر، وسمّوا بالمستعربة، لأنّهم دخلوا في العرب وتعرّبوا. وهذا ما أوضحه حديث الرسول محمد ﷺ بقوله: «أيها الناس إنّ الرب واحد والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان فمنْ تكلم العربية فهو عربي»[3].

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٧٣.

(٢) وهو البناء الذي صبّ فيه سبعون نهراً.

(٣) محمد عمارة: الإسلام والوحدة القومية، المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٩ ص ٦٠.

إلاّ أنّ أنصار العدنانية فقد نسبت إلى نفسها اصطناعَ العربية في الكلام، وجعلتْ من قحطان سرياني اللسان، واعتبرتْ أنّ إسماعيل كان أوّلَ مَنْ نطق العربية من ولد إبراهيم، وأنّ أولاده هم جمهور العرب من بدو وحضر.

إنّ منافسة عرب الشمال وعرب الجنوب على شرف أسبقية التكلم بالعربية، والريادة في معرفتها، تعود إلى منزلة العروبة من الإسلام، وما أفرزه من متغيّرات على مختلف الأصعدة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. كان مؤشّراً هاماً في عمليّة المنافسة، نظراً للغة القرآن العربية، وللسان نبيّها العربي، والأقاويل المرويّة عن أنّ لسان جبريل ـ الروح ـ عربي، والأحاديث النبوية الشريفة التي جاء في أحدها أنّ العربية هي لغة أهل الجنة.

وقد أطلق على الإسماعيليين عدّة أسماء، نسبة إلى أجدادهم مضر ونزار ومعد وعدنان، وأنّ النسابين اختلفوا فيما بين إسماعيل وعدنان، وبقي ما فوق عدنان محلّ خلاف بين كثير من المؤرخين، وليس هذا بغريب، لأنّ العرب الأميّين لم يدوّنوا أنسابهم في كتب، ولم ينقشوها على آثار، وإنما تناقلوها بالرواية واللسان، الذي يكون عرضة للخطأ والتحريف.

ويبدو أنّ قبائلهم المتعددة وبطونهم المتشعبة، التي انتشرت في أنحاء الجزيرة العربية، احتَفظت بعروبتها الخالصة، وأصالتها الصافية وخصائصها المحدّدة، لعدم احتكاكهم بالشعوب الأخرى، وعدم مخالطتهم للأجناس المعروفة كأمة الروم والفرس. وكانت على العموم بدواً رحلاً باستثناء قريش، يقيمون حيث الماء والكلأ، ويتكيّفون مع واقع الصحراء، التي حدّدت معالم حياتهم الاجتماعية، وجعلتهم لا يعرفون الاستقرار والسكينة. وهم إمّا مغيرون يحملون سيوفهم ويشنّون الحروب والغزوات على الأماكن الغنية، طلباً للعيش، وإما رعاة يجرون وراء الأمطار النادرة والآبار القليلة، ويعيشون حياة بسيطة، اكتفتْ بضرورات العيش، واقتصرتْ على تربية الأغنام ورعي الماعز واقتناء الجمال، وبيّنتْ حالة أبناء سكانها، وحددتْ سلوكية وعيها للحياة.

وتُفيد كتب التاريخ أنهم أمضوا قروناً طويلة وهم في شبه عزلة عن

العالم، باستثناء أنشطة تجارية، استخدمتها ممالك اليمن في نقل بضائعها، وتأمين مصالحها الاقتصادية.

ولعلّ قساوة البيئة الصحراوية، ووعورة الطرق الجبلية، ورداءة المسالك الداخلية، تعدّ من أهم عوامل إبعاد الفاتحين الأجانب من غزو بلاد الجزيرة، وفرض السيطرة عليها. فقد حاول الرومان مرات عديدة تدجين المنطقة واحتلال أرضها، لكنهم فشلوا في قهر قبائل البدو العربيّة، التي تحصّنتْ بجبالها، واحتمتْ بكثبان رمالها، وكسرتْ شوكة أوروبا ورغبتها في الهيمنة السياسية، وفوّتتْ عليها فرصة التوغّل في أراضيها، حتى اعتلى الخديوي محمد علي عرش مصر، وسيّر حملةً عسكرية ضد الوهابيين، اعتُبرت فاتحة بحث عن بلاد العرب وأقسامها الجغرافية، خاصة بعد أن جاب مدنها سياح كثيرون، وزار بعضهم أماكن مجهولة[١]، اطلعوا من خلالها على أحوال البلاد وهوية العباد ومقومات الأعمال الانتاجية.

إشكالية القرابة بين القحطانية والعدنانية:

تضاربت الآراء والدراسات التي تكلمت على علاقة القحطانيين بالعدنانيين، وأصبح من الصعب تحديد نوعيّة هذه العلاقة والقرابة بينهما، بسبب تشابك أمورهما، واشتراك مجتمعاتهما بصلات مادية ـ عرقية وجنسية ـ، وسمات معنوية ـ قيم وعادات ـ متقاربة، جعلتْ بعض المفكرين يذهبُ بعيداً في تاريخه لهذه الفترة، فيزعمُ أنّ أهل اليمن وأهل الشمال يعود نسبهم جميعاً إلى إسماعيل ـ صهر الجرهميين ـ الذي يمرّ حسب قولهم، أحياناً بيعرب، وأحياناً بقحطان. وتحدثت رواية أخرى فادعتْ أنّ إسماعيل وقحطان ينحدران من أب واحد هو عابر.

إن دراسة التاريخ القديم وتفحّص منطلقاته، تُرينا بوضوح أنّ كتابات هذه المرحلة لم تشر إلى فارق بين عرب القحطانية وعرب الإسماعيلية

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب، نقله إلى العربية عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الثالثة ١٩٧٩ ص ٦٤.

والعدنانية، وانّ القرآن الكريم لم يميّز إطلاقاً بين «القومَيْن»، وانّ كلّ ما ذكره أنّ العرب ترجع إلى إسماعيل بن إبراهيم. قال تعالى: ﴿**وجاهدوا في الله حقّ جهاده هو اجتباكمْ وما جعلَ عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم**﴾[1]. ولم يرد في الشعر الجاهلي ذكرٌ لتقسيم العرب إلى قحطانية وعدنانية، وكل ما قيل في هذا الشأن هو من قبيل التفاخر بأصل الإنسان ونسبه سواء بقحطان أو بعدنان، مادة عرب الجاهلية. يقول جرير في فخره بجده إبراهيم:

أبونا خليل الله لا تنكرونه   فأكرم بإبراهيم جداً ومفخرا[2]

بيْد أنّ دعاة التفرقة والتقسيم، رفضوا ذلك مستدلين بالعداء المتحكّم بين الجماعتين، من دون أنْ يفهموا حقيقة الصراع والمنازعات التي تدحض هذا الزعم، والتي تؤكد أنها من إفرازات المرحلة، ومن سلبيّات الواقع الاجتماعي والأوضاع الاقتصادية المعاشة، التي كثيراً ما فرضت المصلحة المشتركة تحالفات معيّنةً، بين بطون وقبائل عربية، قحطانية وعدنانية، وانطلقوا في موقفهم من نزاع أهل مكة وقبائلها العدنانية مع مدينة يثرب وقبائلها اليمنية ـ الأوس والخزرج ـ من دون أنْ يلحظوا الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تستدعي هذا النوع من الحروب والغزوات.

وهكذا يتبيّن أنّ الأحداث التي جرت في شمال الجزيرة العربية وجنوبها، وأنّ الهجرات المتتالية نحو الشمال والجنوب، أدّتْ إلى امتزاج مختلف قبائل العرب، قحطانية كانت أو عدنانية، جنوبية أو شمالية، وأزالتْ الفوارق الطفيفة بين لهجات قبائل عرب الجنوب والشمال، ووحّدتْها في بنيوية متجانسة، وصهرتْها في لغة عربية واحدة، هي لغة القرآن الكريم التي أمّنت وحدة الأمة، واستطاعتْ أن تقيم دولتها الواحدة، وتؤاخي بين السكان كافة. وكانت معلماً هاماً في الفتوحات العربيّة والغزوات الإسلامية، التي دفعت بكثير من الأعاجم والأجانب إلى طلب التعرّب، حباً بمعرفة الإسلام،

---

(١) سورة الحج، آية ٧٨.

(٢) عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب جـ أول ص ٨٥.

وضناً بتحريف تعاليمه وتشويه معانيه. وهي اللغة نفسها التي أعاقت الدول الغربية من فرض سيطرتها على المنطقة العربية في العصور القديمة والحديثة، والتي وقفت شامخة أمام ضربات المستشرقين وحركتهم المشبوهة ـ تبسيط اللغة وتسهيل فهْم قواعدها ـ وحالتْ دون تحقيق غاياتهم في التقسيم والسيطرة.

الفصل الأول

آفاق الصراع الطبقي وحدّته عند عرب الجاهلية

أ ـ مظاهر القوة عند الطبقة العليا

ب ـ الطبقة الدنيا: موقف ومضمون

آفاق الصراع الطبقي وحدّته عند عرب الجاهلية

أظهرت الدراسة الموضوعية، المهتمة بوجود الإنسان وقيام المجتمعات، قدميّة فكرة الصراع الطبقي، وتاريخيّة فلسفة التناقض، واحتلّتْ المنافسة الاجتماعية فيها حيّزاً بارزاً من اهتمام النشاطات الإنسانية. وبالأحرى كان الصراع الطبقي مظهر الحياة العامة، بمختلف أوجهها المتصارعة، التي ارتبطتْ آثارها بحدّية التفاوت الاجتماعي، وتدهور الأوضاع الاقتصادية، وبروز الفوارق الطبقيّة الكبيرة.

كان مجتمع الجاهلية لا يسمح بإقامة التوازن الاجتماعي وتحقيق العدالة والمساواة، لأنّ مواصفات الحياة بدائيةٌ وبسيطةٌ، قامتْ على العصبية ونظامها القبلي، الذي حتّم وجود السلطة السياسية والاقتصادية في يد القوى الغنيّة، التي استأثرتْ بثروات البلاد ومنافعها المادية، وهيمنَتْ على مرافقها الحيوية، وأحدثتْ شرخاً في البنى التحتية، وتفاوتاً في نمط العيش، أدّى إلى ظهور طبقتين رئيستين. عليا وتضم أصحاب السلطة والنفوذ، من ملوك وأشراف وأغنياء، ودنيا وتشمل غالبية أبناء البلاد من فقراء وعبيد وخدم وصعاليك، وغيرهم من الفئات الاجتماعية الكادحة، التي وإنْ غيّرتْ حركة نضالها بسبب الظروف والإمكانيات الجديدة، فإنها لا تزال نشطةً، تسعى لتخفيف البؤس عن المظلومين، ورفع الظلم عن المحرومين، وتسعى لإزالة المفاهيم الفوقية، التي تزدري الكادح وتحافيه.

مظاهر القوة عند الطبقية العليا:

إذا كانت خصائص الحياة طبعتْ مجتمعاتها البشرية وطبقاتها الاجتماعية والسياسية بميّزات واضحة، حدّدتْ فيها هويّة كلّ طبقة، وبيّنتْ نمط تفكيرها وطريقة تعاطيها مع شؤون الحياة وشجونها، فإنّ دراسة أوضاع الطبقة العليا، والاطلاع على مواصفاتها العامة، تُظهرُ حقيقة الإنسان، والمميزات التي تطبعه وتجعله يتخلّقُ بصفاتها. فعنصر الغنى والبحبوحة يؤدّي حتماً وفي مختلف بقاع الأرض، وفي شتى الأزمنة التاريخية ـ قديمها وحديثها ـ إلى بروز عنصر الغرور والكبرياء والتفوّق، وصفات التعالي والتحكّم، وسمات القوة والتسلّط.

شملتْ هذه الطبقة الفئات الأرستقراطية ـ الملوك والأشراف والأغنياء ـ وحافظتْ على صفاء دمها، وتمنعتْ عن الزواج بالآخرين ممّنْ لا يماثلها جاهاً، ولا يشابهها نفوذاً في السلطة، ومثلتْ عظمة النسب ورفعة المحتد وكرم الأصل.

تمتّعتْ بمكاسب ميّزتْها عن غيرها من الشرائح الاجتماعية، وتحصّنتْ بنعم السلطة الحاكمة، فملكتْ مراعي واسعة وفّرتْ لها حياة بذخ وترف. اختّصتْ بعادات محددة ومفاهيم معيّنة، عكستْ صورة أنظمتها الفوقية، التي استأثرتْ بقوات قمعية رادعة، حمتْ مصالح كبار التجار، وحالتْ دون حقوق الفقراء، وضربتْ مَنْ تسوّلُ له نفسه التطاول على أسياد البلاد أو المسّ بقوانين المجتمع ونصوص أعرافه، وعدّتْها من المحرّمات الكبيرة والجرائم الخطيرة، التي يعتبرها القانون تعرّضاً لأمن الدولة والمصلحة العليا، والتي توجب قصاصاً صارماً وعقاباً شديداً، تُرهبُ فيه المعارضة من أبناء الفئات الاجتماعية الأخرى.

إضافة إلى ذلك فقد أكثر الحكام والأغنياء من حيازة الخدم والجواري، وتسرّوا بالإماء والمحظيات، مما أدى إلى زهد الناس بالحرائر وإشاعة الفحشاء والرذيلة[1]. وهذا ما أشار إليه قوله تعالى في محكم قرآنه:

---

(١) ظافر القاسمي: الحياة الاجتماعية عند العرب، دار النفائس بيروت طبعة أولى ١٩٧٨ ص ٢٣٢.

﴿إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلّة﴾[1].

تذكر الكتب المختصّة، أنّ أبناء هذه الطبقة، كانوا يعملون في التجارة والزراعة، في أطراف الصحراء العربية من بلاد اليمن والحيرة ومشارف الشام، التي وفّرتْ مُناخاتها الأمنية والطبيعية، الاستقرار والازدهار. فلبس معظم ملوك هذه الطبقة النعال الرقاق، والثياب المصنوعة من الخزّ الأحمر، وكانوا ظلمةً مستبدين، همّهم الأساسي الانصراف وراء الملذات وإشباع الرغبات والأهواء، وإرواء النفس المفرطة من بهج الدنيا ومتعها، من دون احتساب لرقيب، أو تخوّف من تأنيب ضمير.

وهم لا يختلفون في ماضيهم عن أيامنا الحاضرة، حيث نرى أنّ استبداد الحكام في الأزمنة القديمة، تحت سيطرة الأفكار الخيالية، ليس بأعظم فتكاً من استبداد حكام اليوم، في بلاد المعرفة وتحت سماء التمدن في القرن العشرين، حيث يمتصّون جهود الطبقات الدنيا، وينزلون بها الذلّ والهوان، ويعيشون هم في أبراجهم العاجيّة، معتكفين في دورهم لا يتعاطون مع عامة الناس، من دون أن يعوا انّ دولتهم في ظل احتكار العمال والفقراء، ورفض إنصافهم بالآخرين، دليلُ ضعف وسقوط، مآلها إلى الوقوع في الهاوية، والنزوع نحو رياح التغيير، التي تفرضُ تصحيح الأوضاع وتكريمَ الفرد وتكريس مفهوم إنساني، يؤكد عبثيّة وجود حاكم من دون رعية، لأننا لم نسمع يوماً أنّ ملكاً يستطيع العيش بلا رعية، في حين أنّنا نعلم أنّ الرعية تستطيعُ أن تشقّ طريقها، وتواصل حياتها من غير أنْ يكون على رأسها ملك[2]، يستهين بحريات العباد وحقوقهم، ويحطّ من كرامتهم ورفعتهم.

فمثلاً يُروى أنّ قبيلتي طسم وجديس ـ من سكان عرب البائدة في بلاد ما بين النهرين واليمامة ـ حكمها ملك يُقال له عملوك، كان ظالماً وغاشماً،

---

(١) سورة النمل، آية ٣٤.

(٢) جمال الدين الأفغاني: الله والعالم والإنسان، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية بيروت جـ ١ ١٩٧٩ ص ١٠٨.

لا ينهاه شيء عن تحقيق رغباته وإرواء نهم غليله، انتهك حرمة جديس ونال من كرامتها، خاصة بعد أن أصدر أمراً بأن لا تزوّج بكرٌ قبل أن تساقَ إليه ويفترعَها[١].

أثار هذا العمل ثائرة امرأة من جديس واسمها عفيرة، وقيل الشموس بنت غفار الجديسي، فحرّضتْ قومها على رفض الإهانة والقضاء على الملك، وأثارتْ أريحيّةَ شرفهم، وألهبتْ نخوة وجدانهم وشجاعة موقفهم، وهي تخرج من عنده بدماء الذلّ والعار، وتمرّ بهم وقد شقّتْ ثوبها وهي تنشد:

فلو أننا كنّا الرجالَ وكنتم ... نساء لكنّا لا نقرُّ على الذل
فموتوا كراماً واصبروا لعدوّكم ... بحرب تلظّى في القرام من الجزل
ولا تجزعوا للحرب يا قومُ إنما ... تقوم بأقوام كرامٍ على رجل[٢]

فثارتْ جديس على الملك وقتلته، وأنقذتْ شرفَها من جبروته، وصانتْ البلاد من استهتاره بالمحرّمات والتفريط بقيم الإنسان ومنطلقاته الخلقية.

ويقال إنّ الملك حجر بن الحارث الكندي ـ والد الشاعر امرىء القيس ـ تولى حكم بني أسد وكنانة، لكنه لم يسكن في منازلهما خوفاً من بطش أبنائهما والخلاص من حكمه، بسبب قساوة أعماله وفداحة أتاوته السنوية.

ويبدو أنّ بني أسد انتهزوا فرصة وفاة والده الحارث، فرفضوا طاعته، وامتنعوا عن دفع الأتاوة وضربوا عماله، وتمكنوا منه وقتلوه في معركة ضارية. وقيل إنه أُسر وَوُضع في قبّة، وتولى قتله علياء بن الحارث الكاهلي، ثأراً لأبيه الذي كان قد قتله حجر.

وقد ذكرتْ كتبُ الأدب أنّ أبناء كنانة وقيس انضموا إلى بني أسد، واشتركوا معهم في نهب معسكره[٣]، إثر مخاطبة بني أسد لهم قائلين: «يا

(١) المسعودي: مروج الذهب، دار الأندلس بيروت جـ ٢ ١٩٦٥ ص ١١٤.
(٢) عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب ص ٩٧.
(٣) نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، دار الفكر بيروت ١٩٧٥ ص ٢١٦.

معشر كنانة وقيس، أنتم إخواننا وبنو عمّنا، والرجل بعيد النسب منّا ومنكم، وقد رأيتم سيرته وما كان يصنع بكم هو وقومه»[1].

أما النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذي عُرف بقساوته مع قومه، فقد ضَربَ رجلاً محتاجاً كادت تسمع عظام وجهه وهي تقرع، بعد أن سال دمه، وتخضّبتْ لحيته. واشتهر بذبح رجل اتّهمه بالعمالة لخصمه جبلة بن الأيهم ملك الغساسنة.

نكتفي بهذا القدر من سرد عواقب الظلم ونهاية أسياده، ونتركُ لكتب التاريخ أنْ تستزيدَ من إعطاء المعلومات، كي تكون نهايةُ الملوك والأسياد المفجعة عبرةً وحكمةً للأمم والشعوب كافة، وأن تخبر البشرية أنّ ظلمات الليالي السود مهما طال عمرها، فإنّ مصيرها إلى الزوال والسقوط.

الطبقة الدنيا: موقف ومضمون:

عرفت الطبقة الدنيا في مختلف الأزمنة مزايا خُلقية رفيعة، وسمات اجتماعية عالية، حدّدت رؤياها وأوضحتْ منطلقاتها، ورفعتْ لواء الحرية والعدالة ورفضت الظلم بأشكاله كافة، وقاتلتْ فكرة التمايز الاجتماعي والتفوّق العرقي والطبقي، ووقفتْ إلى جانب المظلومين والمعذّبين، وتمسّكتْ بالشمائل العالية والمناقب الخلقية، وجاءت الشهادة على لسان أحد الكتّاب الأجانب في مقارنة حالة أفقر طبقات العرب وبني قومه بقوله «لا يسعني سوى الاعجاب بما يسود اجتماعات أولئك القرويين من الوقار والحشمة والأدب، وما أعظم الفرق بين اتزان أقوالهم ونبل أوضاعهم، ولغط بني قومنا وتهافتهم»[2].

شملت الطبقة الدنيا الفقراء والمعوزين، ممّن استهلكوا نشاطهم الفكري واليدوي في خدمة الأثرياء والحكام، والذود عن مصالحهم والدفاع عن ممتلكاتهم، وتربية ماشيتهم وزراعة أرضهم وحصاد منتوجاتهم.

---

(١) عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب ص ٤٢٠.

(٢) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، مطبعة التضامن، بغداد ط ثالثة ١٩٦٩ ص ١٣٢.

ويأتي العبيد في أسفل فئات هذه الطبقة فقراً واحتكاراً. كان معظمهم من الغرباء الأجانب ـ أحباش أفريقيا ـ الذين كانوا يباعون في أسواق النخاسة ـ سوق عكاظ وسوق حباشة خاصة ـ وكان القليل منهم أحراراً، عجزوا عن إيفاء ديونهم فبيعوا رقيقاً، سواء منهم العبيد الذين يُجلبون إلى بلاد العرب، أو الأسرى من العرب المسترقّين في الحرب. فمثلاً بيع في أسواق مكة من أسرى العرب زيد بن حارثة، الذي اشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة زوجة الرسول ﷺ، والنابغة أم عمرو بن العاص التي أصابتها رماح العرب في إحدى الغزوات، فبيعت في سوق عكاظ واشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل السهمي[1].

وعُرِفَ العبد بلفظتي القين والمولى، وكان يُلحق بسيده الجديد إثر وقوعه في أسرى الغزوات والحروب، فيخضع لمشيئته ويمتثل لأوامره، ويلبي رغباته. وعُرفت الأنثى بالأمة وأُطلقَ عليها تسمية القينة، التي اختصّتْ أحياناً بالجواري والمغنيات، وقيل لابنها هجين الذي كان يبقى عبداً حتى تعترف به قبيلته. وهذا ما حدث لعنترة الذي رفض في البدء الاشتراك في الدفاع عن عشيرته، محتجاً بقوله المعروف: «العبدُ لا يُحسن الكر والفر إنما يُحسن الحلاب والصرّ»[2].

خلق التفاوت الاجتماعي والاقتصادي في طبقات المجتمع الجاهلي فئة مستضعفة أخرى، عُرفت بصعاليك العرب الذين كانوا في منتهى الفقر والإدقاع. امتازوا بالقوة الجسمية وسرعة العدو والشجاعة والأنفة، واعتبرهم بعض النقاد أشبه بقطاع طرق، كونهم يعيشون على سلب أموال الأغنياء والإغارة على مناطقهم الحيوية.

وقد احتل الصعاليك منزلة هامة في تاريخ العرب ـ القديم والحديث ـ وكانوا تعبيراً حادّاً عن أزمة المجتمع ومشكلاته، ومنبراً في تاريخ الشعوب المضطهدة وحركتها التغييرية والإصلاحية. التزموا بأهدافها المبدئية ـ عدالة

---

(١) عرفان محمد حمّور: أسواق العرب، دار الشورى بيروت ط ثانية ١٩٨١ ص ٧١.

(٢) عنترة بن شداد: شرح ديوان عنترة بن شداد، مكتبة الحضارة دمشق ١٩٥٧ ص ٢.

اجتماعية، حرية سياسية، توازن اقتصادي ـ، وخرجوا على أعراف المجتمع القبلي وثاروا على أوضاعها الطبقية. فقاتلوا الفقر ومسبّباته، وطاردوا الجوع وويلاته وما يلحق عواقبه من ذلّ وهوان، وساووا بمقدرتهم القتالية وشهامتهم الفروسية أسياد العرب وسراتهم.

عكست ظاهرة الصعاليك طبيعة الحياة العامة، وبيّنتْ علاقاتها الخاطئة، التي فرّقت الأهل، وشرّدت أفراد العائلة الواحدة، لاختلاف الجنس واللون، وجعلتْ بالتالي الآباء يرفضون إلحاق أبناء الحبشيات بنسبهم، لسوء خلقتهم السوداء وعار ولادتهم، أمثال السُّلَيْك بن السّلكة والشّنفرى وتأبّط شرا، والتي أوجدتْ مجموعة من الصعاليك، عرف بعضهم بالشذّاذ أو الخلعاء، ممّنْ طردتهم قبيلتهم وخلعتْهم من عصمتها، ونبذتْهم من عضويتها، بسبب أعمالهم المنافية لأعراف القبيلة والأضرار التي يلحقون بها، أمثال حاجز الأزدي وقيس بن الحدّاديّة.

أغار هؤلاء الصعاليك على مختلف الأقوام من دون وازع مبدئي أو رادع وجداني، وجابوا الصحراء مفتخرين بأفعالهم معتبرين الحيوان والطير بمثابة أهلهم وعشيرتهم. فالشنفرى مثلاً الذي جاب الصحراء مفاخراً بغزواته، سخر من الذين يقبعون في مضاربهم، ولا يجوبون القفار. وقد قرّع امرأته لمنعه من الخروج مع أنداده من الصعاليك، وفضّل أن يسفّ التراب بدل أنْ يهدّ الجوع كيانه، وأن تظهر عليه علائم الضعف، ويشمت به أفراد الطبقة الأخرى. وتأبط شرّا الذي اسمه وحده يُوقع الخوف في قلوب الأعداء[1]، كان لا يأنس بقرب الأهل، ويفضّل حياة العزلة والبادية والانفراد بالطبيعة وعوالم الأفلاك السماوية. وقد رأى بعض المستشرقين في خروج بعض صعاليك العرب على تقاليد القبيلة، والنكوص عن الوفاء بمواثيقها ما يؤكد نزعة العربي ـ ابن البادية ـ إلى الفردية والانطواء على النفس، وجعل عيشهم مع القبيلة أمراً مستحيلاً، لأنهم لم يحترموا الأعراف والتقاليد التي

(١) بلياييف: العرب والإسلام والخلافة العربية، نقله إلى العربية أنيس فريحة، الدار المتحدة بيروت ١٩٧٣ ص ١٠٩.

تتحكم بالحياة القبلية. وهذا ما أظهره بروكلمان حين ادعى أنّ العربي الذي دخل في الإسلام لكان يقاتل في سبيل عقيدته [illegible] أنجالاً»(1).

والواقع أنّ الصعلوك شخصية فذّة لم تتوفر بعد معطيات كافية لدراسة خصائص الصعلكة، التي أفرزها نتيجة حتمية لتخلف المجتمع البدوي وفقدان العدالة فيه، بدليل أنّ التناقض الطبقي الحاد جعل أبناء الفئات الفقيرة ينقضّون على الملوك المستبدين ويثورون على الأثرياء الأشحاء، وأنّ الفردية في المجتمع سرعان ما تذوب أمام مصلحة القبيلة، وأنّ الصعلوك الطريد أو المخلوع لا يتردّد في التضحية من أجل عزّتها ورفع الضيم والأذى عنها، بدليل أنّ لقيط الإيادي، وكان كاتباً في ديوان كسرى، رفض طلب تأمين اجتماع كسرى بقومه في موضوع معيّن بغية مفاجأتهم والبطش بهم، فنبّه قومه وحذّرهم، وفضّل التضحية بحياته على خيانة قبيلته(2)، وأنّ السليك بن السّلكة أبى التعرض لقومه مضر، والتخلّف عن التعصّب لهم ومساندتهم، ووقف إلى جانبهم يشدّ من أزرهم ويقوّي من عضدهم. علماً أنّ العربي المقاتل، كثيراً ما يتردّد قبل أن يشهر سيفه في وجه قريب أو نسيب، جمعتهم صلات الرحم، وأنه يلتجأ إليه متى استنفد الوسائل التي تمكّنه من إخماد الفتنة، وأنّ خير ما نمثّل به هو موقف الأعرابي المتفكّر الذي جسّد موقفاً إنسانياً، عندما رفض قتل أخيه القاتل ثأراً لابنه المقتول(3).

بيد إنّ مجموعة من الصعاليك يعود نسبها إلى أصل كريم ومحتد نبيل، لم تلجأ إلى الصعلكة بدافع النهب والسرقة، بل احترفت الصعلكة إيماناً منها بقيم إنسانية عالية ومبادىء عادلة، هدفت إلى إقامة العدل وتحقيق المساواة وإحلال نوع من التوازن الاقتصادي، عن طريق القوة والعنف وشن الغزوات

---

(1) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم بيروت ط التاسعة ١٩٨١ ص ١٨
(2) إحسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار اليقظة العربية ١٩٦٣ ص ٢١٥.

(3) مصطفى الشكعة: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٤ ص ٧٩.

والاعتداء على أملاك الأغنياء وثروات الأسياد.

ويأتي على رأس هذه المجموعة عروة بن الورد ـ أحد أشراف عبس وأبطالها ـ الذي طلب الثروة والمال من أجل فقرائه وتصحيح الخلل الاجتماعي، بدليل أنه لم يكن يُغير على الأجواد من الأثرياء، الذين يقدمون المعونة والمساعدة إلى المستضعفين، بل كان يتخيّر الأغنياء ممّنْ عُرفوا ببخلهم وشحّهم، وأرهقوا الناس بجشعهم، وأماتوا المروءة في نفوسهم، ولم يرعوا ضعفاً ولا قرابة أو حقاً من حقوق الأقوام[1]، واستطاع أنْ ينسجَ فكراً اشتراكياً، وأنْ يرصدَ حركات المجتمع، ويفهمَ تطلعات أبنائه، ويرى أنّ الأغنياء يحتقرون البائس ويعتبرونه أسوأ الناس وأخطرهم، قد يُجافيه أهله وتزدريه امرأته، وأنّ العامة تُبجّل الغني وتغفر له ذنوبه وتبرّر أعماله[2]. الأمر الذي جعل معاوية بن أبي سفيان تمنّى لو استطاع مصاهرة عروة، وعبد الملك رغب لو كان عروة أباه[3].

مارس صعاليك العرب فنّ القتال وافتخروا بخوض غمارها، ولم يكترثوا بما تخلّفه من موت وخراب، ورأوا أنّ فكرة الحرب أتتهم من تنكّر مجتمعهم لهم، وأنّها الطريق لتحقيق الذات وضرب الفقر، الذي كان محور كتاباتهم وسبب تصعلكهم. يقول الشاعر أبو النشاش مفضلاً الموت على الفقر:

فلم أرَ مثل الفقر ضاجعه الفتى ... ولا كسواد الليل أخفق طالبه
فعشْ معدماً أو متْ كريماً فإنني ... أرى الموتَ لاينجو من الموت هاربه[4]

وهكذا تباينت الصورة الطبقية في المجتمع الجاهلي، وتوضحتْ مواصفات طبقاته الاجتماعية والسياسية، التي أفرزت مفاهيم وقيماً تماشتْ مع الواقع القبلي والنظام الطبقي، وأكدتْ أنّ البشرية لا تعرف أمناً واستقراراً في ظل الهيمنة الطبقية والتفوق الاجتماعي والتمايز الجنسي.

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، دار صعب بيروت مجلد ٣ ص ٨١.
(٢) عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك، منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية ١٩٧٩ ص ١٨٩.
(٣) عرفان حمود: أسواق العرب ص ٦٨ والأصفهاني: الأغاني دار صعب بيروت ج ٢ ص ١٩٠.
(٤) عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ص ١٨٩.

الفصل الثاني

البداوة الحضرية بين النظرية والتطبيق

أ ـ فطريّة البدوي ومدنيّة الحضري

ب ـ خصائص البدوي وسماته الحضرية

ج ـ حرية البدو وارتباطه بالأرض

البداوة الحضرية بين النظرية والتطبيق

يُعتبر موضوع البداوة والحاضرة من أهم موضوعات العصر الجاهلي، وأغناها فكراً وثقافة، لأنه صورة حية عكست واقع الحياة العربية عند عرب الجاهلية، بأبعادها الاجتماعية والإنسانية، في مرحلة تاريخية حرجة، خالطت أحداثها الكثير من المغالطات والأراجيف، التي ظهرت في طيّات كتب المؤرخين العرب ـ القدامى والمحدثين ـ ممّن تتلمذوا على يد فئة من المتعصبين المتأثرين بالثقافة الأجنبية وحركتها الإستشراقية التي لخلفيات سياسية وأهداف استعمارية، شوّه بعض كتّابها الوقائع التاريخيّة وأوّلوا أحداثها، وطمسوا الحقائق وضربوا الموضوعية.

فقد صوّر هؤلاء الكتّاب ابن البادية همجياً متخلفا، يهيم على وجهه طائشاً متشرداً، لا يعي وجوده ولا يفقه دوره الاجتماعي والوظيفي في دورة الحياة وعجلتها الاقتصادية، وبالتالي فهو لا مكانة له في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني، لأنّ بلاده، حسب المستشرق رينان كانت تغط في دياجير الظلم والعبودية، وتغرق في ظلمات الجهل والتخلف[1].

لكنّ رينان هذا دفعه تعصّبه الأعمى إلى أنْ يتناسى الدور الحضاري والريادي، الذي لعبه سكان هذه المنطقة، عندما تمكنوا في أقل من مائة عام، من أنْ يقيموا حضارة من أنضر الحضارات، التي عرفها التاريخ، وأنْ يشيدوا مدناً زاهرة ظلّت قروناً طويلة، مراكز للعلوم والآداب والفنون في آسيا وأوروبا

(١) ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، دار النهار بيروت ١٩٧٧ ص ١٥١.

قاطبة، وتغافل قصداً عن الحقيقة الموضوعية والعلمية التي تقول بأن حضارة أية أمة ورقيها لا يأتيان دفعة واحدة، لأنهما ثمرة ماض طويل وجهاد عنيف مرت به الأمة بمراحل صعبة وأزمات قاسية، تحتت خلالها مخاضات عسيرة وإرهاصات نيرة، قبل أن تصل إلى هذا المستوى الإنساني المتقدم.

والواقع ان المجتمع البادية وما تخللته من ملامح مضيئة في حياة الشعوب والأمم الأخرى، ومن قبسات مشعة في ميادين الفكر العلمي والمعرفة الإنسانية، عبر - هذا المجتمع - عن مكارم العربي وصفاته الطيبة التي تجلى بها الفراسة والشجاعة والنجدة والعفة والجوار ... وأظهر معرفته بكثير من أمور الطبيعة وقراءته بأحوالها وعلمه بمفاهيمها وقوانينها.

تطبع البدوي بأجواء الطبيعة، ومارس نظاماً معيناً وأقام طقوساً محددة، وأدرك معارف ذهنية وقوانين علمية، لا تقل شأناً في وضعها وتنظيمها عن قوانين الحياة الصناعية في حواضر المدن الحديثة. واستطاع أن يبني حياة فيها الكثير من مظاهر الحضارة العصرية، التي دار حولها شعر سياسي، تغنى بمفاهيمها وأعرافها الحسنة، ومدح أفعالها العالية ومواقفها السامية، وهاجم من أراد سلب كرامتها والتطاول على المس من كرامتها والسيطرة عليها، وذم من تنكر لها وأساء إليها.

نظرية البدوي والمدنية الحضري:

بينت آثار العرب المختلفة أنهم أمة متمدنة، لها قابلية عجيبة على الاقتباس والإبداع. شهد على ذلك علماء منصفون من الغرب، أعلنوا صراحة عن أهلية عرب الجزيرة، البدو منها والحضر للتمدن[1]. فقد رأى وليم بلغريف الإنكليزي ١٨٢٦ - ١٨٨٨ الذي زار الجزيرة العربية وألف كتاباً عنها، أن البدوي من أعظم أمم الأرض كرماً ونبلاً، وأن الحضري من أنبل شعوب الأرض، وأن العرب عموماً جديرون بكل ثناء واحترام[2]. وأظهر

---

(١) فيليب حتي: العرب، تاريخ موجز، دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٠ ص ١٦.

(٢) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية ص ١٣٢.

غوستاف لوبون ١٨٤١ ـ ١٩٣١ ـ أحد فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيين ـ استخفاف الاعرابي بسلطان الحضارة العصرية، وتفضيله عيش البادية، وبيّن أنّ بأس الاعرابي ونبله استوقف سائحي العالم، ورجّح حياة البادية على حيادة مدنيّة المصانع، وقدّم موقفاً من البدوي بقوله: «إنه على فطرته وعدم تحولّه عن بدائيته هو أفضل من جميع أمم الرعاة في العالم... وان مبادئه في الحياة خيرٌ من مبادىء كثير من الأوروبيين العريقين في الحضارة، وانّ الأعراب الأجلاف بعاداتهم شعراء بتصوراتهم»[1].

وقد عرفت الجزيرة العربية الحياة بنوعيها البدوي والحضري، وتألف مجتمع الجاهلية من بدو وحضر، تباينت أحوالهما وتباعدت تطلعاتهما، واختّص كل قسم بنظام معين، له مبادئه العامة وقوانينه المحددة. فأهل البادية ـ البدو وأهل الوبر ـ هم أكثرية سكان الجزيرة، كانوا يقطنون الصحراء، مواطنهم السهوب والبقاع الشبيهة بالصحارى والبوادي، ويعيشون متفرقين مبعثرين في الصحراء على هيئة قبائل، وينتجعون ينابيع الماء ومنابت الكلأ وأماكن الخصب والرعي، ويعتمدون في حياتهم على حيواناتهم، ويعيشون من ألبان ماشية إبلهم ولحومها، ويقطنون خياماً من وبر. لا يستقرون في مكان، ولا يزالون في حلّ وترحال طلباً للرزق والمعيشة، التي لو توفّرتْ لهم في موطن معيّن، ومكّنتهم من إقامة حياة دائمة ومستقرة، لما تنقّلوا وارتحلوا، لأنّهم مضطرون إلى ملاحقة كسبهم ومواصلة سعيهم، لأنّ الطبيعة التي لا ترحم الضعيف والفقير تتحمّل المسؤولية مباشرة، كونها تشحّ في مناطقهم وتجدب في صحرائهم.

أما أهل الحاضرة فهم سكان الحواضر والقرى المبنية بيوتهم من المدر ـ الطين والحجارة ـ قطنوا بيوتاً من اللبن والعيدان والقضبان المجدولة بالجصّ والمطليّة بالطين. وبنوا مدنهم وقلاعهم بالصفّاح والحجارة، واستخدموا الأعمدة والرخام الملوّن، وأقاموا في موطن واحد واستقروا في أرضهم، وعاشوا على زراعة الأرض والعناية بتربتها، ومارسوا التجارة مع

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٩٥.

المناطق القريبة والبعيدة، وزاولوا بعض الحرف اليدوية.

أثرت الطبيعة في بنية المجتمع وتكوينه وبلورتْ أسس الحياة ودرجة العمران والتقدم فيها، وأظهرت أنّ قلة الأمطار في المناطق الصحراوية جعلت من المحال قيام مجتمعات كبرى أو حكومات لها هيئاتها ومؤسساتها، التي تؤمن السلام وتوفّر العدل وتصون الحقوق والأملاك. في حين أنّ سخاء الطبيعة وجودة مائها وفّرت فرصاً لقيام دولة الحيرة ودولة الغساسنة، التي أدارت الواحدة منها حكومة مسؤولة، أخذت بالنصوص المرعية والقوانين المتداولة.

بيْد أنّ أهل الحضر لم يتميّزوا عن إخوانهم البدو في طريقة تفكيرهم، ونمط معيشتهم ونظم حياتهم، بل ظلوا أوفياء لمثل البوادي وعادات أبنائها وبساطة طبيعتها، بسبب تعرّف مجتمعات القرية والعشيرة إلى مناطق بدوية وحضرية، وبالأحرى إلى وجود بادية وحاضرة في مجتمع القبيلة الواحدة، كقبيلة قريش التي عرفنا فيها بادية وحاضرة، جعلتهم لا يعيشون حياة حضرية فقط، أو حياة بدوية خالصة، بل توافقوا مع نمطي الحياة، وتجانسوا - أبناء بادية الجزيرة وحاضرتها - في كثير من الخصائص المادية والمعنوية، الجسدية والعقلية، وتمايزوا عن سائر الشعوب والأمم. وهذا ما يدفعنا إلى القول انّ مجمل التعريفات التي أطلقت على البدوي جاءت غير دقيقة، وإنْ كان تعريف ابن خلدون أقرب المفاهيم لواقع البادية وأفضلها، رغم ما فيه من تناقض وتجّنٍ، كونه لا يتفق مع ما نعرفه عن معالم حياة البادية في الجاهلية ومظاهرها الاجتماعية، عندما خصّ البدوي بأنه المنتحل الطبيعي للمعاش: الفلاحة والزراعة والرعي، وهو - أي البدوي - المعروف باحتقاره للزراعة والفلاحة، والمعتمد على حاجات الحياة الضرورية، والمقتصر على الضروري من الأقوات والملابس...، والمتّخذ بيوتاً من الشعر والوبر أو من الطين والحجارة[1]، الأمر الذي يوجب الاهتمام أكثر بحياة هذا الإنسان ودراسة أوضاعه المختلفة، بعمق وجدية، أمانة للبحث العلمي والحقيقة التاريخية.

---

(١) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون. دار العلم بيروت ص ٢١١.

خصائص البدوي وسماته الحضارية

إذا سلّمنا بأسبقية البادية على الحاضرة، وأخذنا برأي ابن خلدون، الذي علل أسبقية البداوة، لضيق الأرض والتوسع في فنون الحياة وملذاتها أو لتقلص أواصر القبيلة وضعف عصبيتها، من جراء الاحتكاك بالآخرين والاتصال بهم وإقامة الأحلاف معهم، فتكون البداوة طوراً من سلم الحضارة التي نعتقد أنها ابتدأت أول أمرها بدوية، يوم دخل الجمل إلى الجزيرة العربية، بعد حدوث جفاف متزايد ونزوح نحو الجنوب والشمال، وتطورت مع وسائل الانتاج وتقدم علاقاتها الاقتصادية، خاصة في المناطق التي تتوافر فيها عناصر الحضارة الرئيسة الأربعة: الماء - أنهار وينابيع - والنبات والمعادن والمرافق التجارية، التي تفوقت بها حضارة جنوب الجزيرة عن باقي المناطق العربية، وأصبحت حضارة مدنية ساهمت الصناعة والزراعة والتجارة في تقدم بيئتها وتحديث مؤسساتها، وأخذت منحى جديداً حيال كثرة التعريفات المتباينة التي كان أفضلها ما أشار إليه عمر فروخ في قوله: «إن الحضارة بمعناها العام الواسع هي العادة التي يسير عليها الناس في حياتهم العامة والخاصة، في قطر من الأقطار، وفي زمن من الأزمان»[1] وإلى أن هناك حضارة بدوية ومدنية وزراعية وصناعية... وإن الحضارة والبداوة متممان لبعضهما البعض، لا يمكن الفصل بينهما، لأنهما ضروريان للحياة. فأهل الحضر يعتمدون على البادية في اشتراء المواد الأولية، في حين تعتمد البادية على الحضر في شراء المصنوعات المدنية.

إن تمسك البدوي برابطة العصبية القبلية الضيقة، وإن صموده أمام قوى الطبيعة وقساوة صحرائها، جعل دوره في المجتمع ظاهراً، وأثره في تدجين البداوة والتكيف مع بيئتها جلياً.

اتصف بسمات صارخة وخصائص ميزته عن غيره من الأقوام، وجعلته مضرب الأمثال حتى أيامنا الحالية. كان ذا قوة خارقة، قدر له القيام من خلالها على جليل الأعمال. فهو محب للحرية والحرب، يقاتل كل من يحاول

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٩٢

استعبادهم لأنه تعهّدها منذ صغره وجانس طبعها، وأسقط محاولات الفاتحين في مختلف العصور من أن تنال منها، وظلّ متنقلاً في جزيرته وفيّاً لها من كل فاتح أو غاز. وكانت أخلاقه العالية وعدله ووفاؤه بالعهد قد استوقفت نظر الباحثين، وجعل ابن خلدون يقول إنّ العرب «أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة...»[1]، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى، لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق، وإنّ الأعرابي ولوع بالانتقام ومتماثل مع أبناء بلاده في أمور العز والشرف لوحدة أحوالهم وتجانس مشاعرهم، وأنه يفتخر بالسيف والقرى والبلاغة. فيجدّ السيف كما يقول غوستاف لوبون يصون حقوقه، وبقرى الضيافة يتجلى كرم أخلاقه، وبالبلاغة يفصل في الخصام ما لا يقدر عليه الحسام[2].

وكان البدوي واضح النسب صريحاً، مقداماً وشجاعاً، لا يهاب الموت، بل يرفض الموت العادي ـ حتف الأنف ـ ويطلبه في ساحة الوغى والقتال، وكان كريم النفس، أشمّ الأنف، صبوراً على احتمال الآلام والمحن، يرفض القيود ولا يقبل عن الحرية بديلاً، ويثور على الظلم ويحارب العبودية

اتّصف بمجموعة من الأضداد التي فرضتها من جهة حكمة الخالق وبيئة الحياة، ومن جهة أخرى اضطراب الأوضاع الاجتماعية والصراعات الدائمة على منابت الكلأ وينابيع المياه. فالنهب والسلب والجود والقسوة والنبل والكرم، والعدل والظلم، كلها أمور من بديهيات مجتمع البادية وواقع حياته اليومية، التي اضطرت البدوي إلى التعايش معها والتأثر بمضامينها. فمثلاً الكرم مزيّة العربي في البادية، والسلب عمل طبيعي، يعوّض به ما خسره من ناحية الطبيعة وقساوتها، أو يستردّ حقه من الأغنياء والموسرين. والغزو ليس ضرباً من اللصوصية، وإنْ شابهها في بعض مظاهره، لأنه محكوم بمقومات البيئة التي أفرزت صفات تنسجم مع الصحراء القاسية،

---

(١) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية ص ١٣٥.

(٢) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٩٤

التي سادت بين أبناء البادية، وجعلَتْ عظمة الفرد منهم وسؤدده، يكمن في مقدرته على القتال واستبساله في الفروسية والذود عن ماضيه، والتي أجازت دهم القوافل تعويضاً عن شحّ أرضهم القاحلة، أو حقاً من حقوق الفتح.

تطرّفت بعض الدراسات في موضوعة البداوة واعتبرتها خطراً على الحضارة الحديثة عندما ادّعتْ أنّ العرب إذا دخلوا بلداً أسرع إليه الخراب، وأنّ البداوة تقف عقدة كأداء أمام الحكومات المتحضرة، تضرّ باستقرار البلاد، لأنّ أبناء البادية متوحشون لا يحسنون علماً، ولا يجيدون في مختلف أنواع الأعمال[1].

لكننا نربأ بحال مثل هذه الكتابات، ونعدّ موقف أصحابها ناتجاً عن مظاهر الحضارة الخارجية ومدنيتها البرّاقة واشعاعاتها الخلابة، التي تحمل في دواخلها غوائل قتّالة وأفكاراً هدامة وحروباً مدمرة، بعيدة عن الطروح الخلقية والمبادىء الإنسانية، علماً أنّ البدوي امتاز بدرجة على الحضري بدليل أنّه إذا نبغ شاعر أو تفوّق فارس واشتهر، فغالباً ما يكون بدوياً، وأنّه كان شبيهاً بشرطي الأمن في دولنا المتحضرة، عندما وفّر الحماية لأبناء الحاضرة ولقوافلهم التجارية، لقاء جعالة معيّنة، وصان عهده وخفر حلفه وافتداه بنفسه.

لذلك نأخذ على أصحاب بعض الأقلام سرعتها في إطلاق أحكامها على إنسان البادية، ونرى ضرورة إعادة النظر في كتابة تاريخ عرب الجاهلية ومراجعته من جديد، انطلاقاً من قواعد علمية مجرّدة، لا تحمل تعصّباً وتمييزاً أو خلفية سياسية. ونعتقد عندها أنّ الباحث سيحقّق انقلاباً في المقاييس النقدية، وثورةً في المفاهيم الاجتماعية.

حرية البدوي وعلاقتها بالأرض:

إنّ حبّ البدوي للأرض وإنّ شعوره بالانتماء إلى الوطن ـ المكان الذي يقطنه ـ كان ضعيفاً، لفقدان عامل الاستقرار والإقامة الدائمة، وارتحاله

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٩ ص ٣٥.

من منطقته وتنقله وراء الكلأ والعشب، اللذيْن جعلا الحياة في البادية لا تعرف معنى الانتماء للأرض، وترفض الارتهان لها والتمسّك بها والتنكر لما ينتج منها.

عشق البدوي الحرية وأُغرم بالانفلات من قيودها الاجتماعية، وتحرّر من كل المواقع الحضرية التي تحدّ من تحركه وتحطّ من نشاطه. فلم يُمتهن لأرض ولم يتعهد زرعاً أو يعرف حرفة، بفعل تجواله في صحرائه الواسعة واجتيازه السهول والفيافي بحرية مطلقة. فقد امتنع عن بذر القمح وغرس الأشجار وبناء البيوت، شعوراً منه بالذل تجاه المحراث وبالعبودية للأرض وبالمهانة للبقر. وشَعَرَ بالعزّ حيال الإبل، والقوة والشجاعة حيال الخيل، واحتقر الصّناع والزّراع - أجراء الأرض - وازدرى أهل المدن وعدّهم أرقاء للأرض وعبيداً لها، لأنهم ارتهنوا لها واشتغلوا فيها وامتهنوها.

وقد روى الأدب العربي بعض هذه الحالات فذكر مثلاً أنّ الأعشى عيّر بني اياد لاشتغالهم بجمع حبوب الحصاد، وأنّ عرب البادية عيّر النعمان بخاله لعمله في صياغة القروط في مدينة يثرب، وأوضح أن أبناء المدن ودّعوا الحرية التي لا يمتلك الاعرابي سواها، والتي عاشت في حياته، ألفها في الظعن والتجوال، وأثناء الكر والفر وشن الغارات، وبسببها رفض أعراب سوريا مثلاً كلّ أرض عُرضتْ عليهم ليستقروا فيها[1]، لاستخفافهم بالحضارة المدنية وإيثارهم عيشة البادية. وأنّ الاعرابي احتفظ بكرامة نفسه وسمعته الحسنة وأنّ خير دليل نسوقه في هذا الشأن زوجة عروة بن الورد - سلمى - التي فضّلتْ ترك زوجها الذي أحبته وأولادها الذين أنجبت، وعادتْ إلى أهلها عزيزةً مصونة، بعد أنْ مكثت عنده بضع عشرة سنة، عرفت أثناءها شمائله العالية وصفاته السامية ومكارمه التي قلّ وجودها، من أجل أن لا تسمع كلمة نابية، أو قولاً مرذولاً، وألفاظاً تحطّ من كرامتها وتسيء إلى عزّتها، لأنّ النفس الإنسانية على العموم تكره الإذلال وتنكر الاستعباد وترفض الاستبداد، ولا ترى أثمن من الحرية، التي من جهة تؤخذ ولا

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٩٤.

تعطي له، ومن جهة أخرى لا يماثلها شيء، ولا تستبدل بها، فيغتبط المرء

إفرازاتها في المجتمع الجاهلي، وعقل البدوي خاصة، واستحال عيشها في المجتمعات المتمدنة، التي غيّبت شمسها وطمست وجودها تحت شعارات مزيّفة وأقنعة كاذبة.

إذا رفض رجل البادية فكرة الارتهان للأرض أو امتهانها حرفة تخوفاً من الخضوع لعبودية الأرض، والانعتاق من الحرية وفراقها، لم يجعله يمنع المرأة من الاهتمام بها والعناية بنتاج زروعها، لأنه فضل المرأة الماهرة في مزاولة عملها، والنشيطة في تدبير بيتها وشؤونه. وقد أشارت الدراسات إلى أن المرأة في العصر الجاهلي اهتمت بأعمال الزراعة، ونجحت في نسج البسط والنمارق، واشتهرت بحلب اللبن وغزل الصوف ورعاية النخيل والابل، وبذّت الرجل في تحمّل مسؤولية عبء الحياة، وأنّ نساء العرب الثريات عملن في صناعات محلية، كصنع رماح البحرين التي اشتهرت بها رُدَيْنة، أو عملن في التجارة كخديجة بنت خويلد صاحبة الثروة الاقتصادية والمتاجر الواسعة، في حين أنّ النساء الفقيرات عملن في جمع الأدوية وبيعها، وفي دبغ الجلود وتنميق الحصير، وارتياد الأسواق، وابتياع التمر والعسل واستبدالها ببضاعة أخرى(1).

(1) عمر رضا كحالة: المرأة في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة-بيروت-ط. ثالثة ١٩٨٢ جـ أول ص ١٥.

الفصل الثالث

حروب عرب الجاهلية ودور الثأر فيها

أ - بواعث حروب الجاهلية ومنطلقاتها المبدئية

ب - أبعاد الثأر وانعكاساته في مجتمع الجاهلية

حروب عرب الجاهلية ودور الثأر فيها

أظهرت الدراسات المختصة بشؤون عرب الجاهلية أنّ الحروب التي عرفتها أرض الجزيرة العربية كانت حروباً داخلية، وبيّنتْ أنها حدثت بين أفراد من عشائر وبطون مختلفة، أو بين قبائل عربية وقوات أجنبية، ولم تذكر حرباً اتحدت فيها القبائل العربية كأمة واحدة وحاربت أمة أخرى، وأشارت إلى أنّ هذه الاشتباكات ـ المناوشات ـ وقعت في يوم أو بعضه، بدافع البحث عن الرزق أو الأخذ بالثأر ـ الانتقام ـ والدفاع عن الشرف والحمى أو الطمع في ثروة الآخرين والسيطرة على ممتلكاتهم وطلب السيادة والزعامة.

وكانت هذه الحروب على نوعين، أحدهما علنية سبقها نزاع ومشاحنات، توقّعت الأطراف المتنازعة فيها إعلان الحرب في أية لحظة، فيستعد المقاتلون لمواجهة الأحداث ويأخذون للأمر عدّته، ويتحسّبون للأخبار ومختلف التطورات، والنوع الثاني سرّية عُرفت بالغارة حيث يفاجأ فيه القوم ويؤخذون على حين غرّة، وتكون السرّيّة عامل النجاح فيها، فيجهدون لإخفاء مقدماتها وكتم نواياهم، ويلجأون إلى حيل عسكرية وخططٍ حربية، تتناسب وأوضاعهم الحياتية وتتوافق وبيئتهم المعاشة.

كانت الحرب في الجاهلية شرعة الحياة ومورد الرزق والمعاش وإعادة الاعتبار وردّ الكرامة. وكان الحق غالباً إلى جانب القوي صاحب الشأن والنفوذ ـ كما هو حال اليوم ـ وإنّ عنصر القوة هو المؤشر الغالب على منطلقات الأفراد ووجود الدول. وإنّ الإنسان القوي شنّ الغارات وأرسل

الغزوات بدوافع ذاتية وحوافز مادية، اعتمد فيها على مقدرته القتالية وشجاعته الحربية، وتفوقه الاجتماعي الذي جعله مفضّلاً على الآخرين ومميّزاً عن بقية الناس، يرد وأنعامُ قبيلته الماءَ قبل بقية القبائل الضعيفة، لأنّ قوتهم ترهب الآخرين ولا تضاهيها قوة، وتمنع الآخرين من منافسة تصدّر الأولوية، وإنّ حق البدوي في امتشاق سيفه لا ينازعه فيه أحد، لأنه قانون الجاهلية، التي كثرت وقائعها وتعدّدت أيامها وشاعت غارات قبائلها، بسبب طبيعة العصر وأحداثه المفتعلة وأزماته المزمنة، التي جعلت البدوي حادّ المزاج سريعَ الغضب وضيّق الأفق ومحدودَ التفكير، يبالغ في تصوّر الأمور وبخاصة التي تتعلق بشخصه، وتنال من سمعته ومكانته الاجتماعية، مثل الشرف والعزة والكرامة والأنَفَةَ والإباء... فهو يثور لأتفه الأسباب ويغضب من دون رويّة وتعقّل، ظناً منه أنّ كرامته قد مُسّت، أو أنّ شرفه قد امتهن.

والواقع انّ الحياة الجاهلية والبيئة البدوية هيّأت ظروف المنافسات، ووّفرت طرق المشاحنات وأغرقت المنطقة بدوافع الخصومات. وقد ساعد على ذلك عامل قوي هو عدم وجود سلطة مركزية رادعة، تنشر الأمن وتحقّق العدل وتصون الأملاك، وبالتالي عدم وجود حكومة يخضع لها أبناء البلاد، ويأتمرون بقوانينها، ويحرصون على احترام تشريعاتها. مما خلق شعوراً بأهمية القوة، كملاذ من عاديات الدهر وعواقبه، وصار المرء يجهد النفس لتقوية ذاته ليذود عن حياضه، وليخشى بأسَه الآخرون. وقد صدق النابغة الذبياني في قوله:

تعدو الذئاب على منْ لا كلابَ له ... وتتقي صولةَ المستأسدِ الضاري

لذلك نستطيع أن نتصور أنّ حياة الجاهلية عرضة لشتى أنواع الحروب، وأنّ الظروف الدولية المحفوفة بالاخطار هيّأت جواً لحدوث الخصومات وافتعال الاشتباكات. وبالأحرى فإن الصراع القبلي وتقاتل القبائل العربية، فتح الباب أمام الأجنبي ليتدخل في تعكير الأوضاع وتسعير الحروب والوقائع المعروفة بأيام العرب، والتي كان أعظمها ثلاثة، يوم الكلاب وهو

يوم انتصر فيه عرب الشمال على عرب الجنوب، بعد عهد الانتصارات المتوالية لعرب الجنوب[1]، ويوم شِعْب جَبَلَة بين عبس وذبيان، انتصر فيه بنو عبس وحلفاؤهم على ذبيان وحلفائها، بعد أنْ اعتصموا في شِعْب جَبَلَة وجعلوا النساء والأولاد والأموال في رأس الجبل، بناء لخطَة قيس بن زهير العبسي، الذي طلب إدخال نعم القوم شِعْب جَبَلَة، ثم إظمائها عدة أيام من دون أن ترد الماء، حتى إذا جاء العدو أفرج عن الإبل، وخرج الجميع في أعقابها، فيتفرّق شملهم وتتمزّق قوتهم وتنهزم فلولهم[2]، ثم يوم ذي قار بين الفرس والعرب الذين انتصروا فيه لأول مرة في تاريخهم، وأظهروا حنكة في شؤون الحرب ودراية في ضروبها العسكرية.

بواعث حروب الجاهلية ومنطلقاتها المبدئية:

إنّ أهمية هذه الحروب وكثرة وقائعها، وملامستها لعصب الحياة العربية في الجاهلية، يجعلنا لا نضنّ بمعرفة أحوال هذه الحروب والعوامل المنشطة لها، والبواعث المتعدّدة التي أوجبتْ نشوبها، والتي يأتي على رأسها الباعث الاقتصادي الذي عبّر عن طبيعة البادية وجفاف تربتها وضآلة مواسمها، واختصر ضيق الحياة والتبرم بمقوماتها الضئيلة، من خلال إيجاد حركة دائمة ونشطة نحو مواطن المياه ومناطق العشب والمرعى، التي تسبّبت في قيام حرب بين المتسابقين والوافدين إليها والنازلين بها.

وخير مثل نضربه على هذا النوع حرب البسوس التي وقعت بين بكر وتغلب في السنين العشر الأخيرة من القرن الخامس الميلادي، والتي انتهت عام ٥٢٥م حين توسط ملك الحيرة المنذر الثالث، وانسحب المهلهل ـ شقيق كُليب ـ الذي ضُرب به المثل في الشجاعة، من المعركة وترك ديار قومه، إشفاقاً عليهم من استمرار الحرب ومضى إلى اليمن.

(١) عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، دار العلم بيروت ط ثانية ١٩٨٤ ص ١٢٦.
(٢) علي الجندي: شعر الحرب في العصر الجاهلي، مكتبة الجامعة العربية بيروت ط ثالثة ١٩٦٦ ص ٣٧.

ويعود السبب الرئيس لاندلاع نيران هذه الحرب إلى استبداد سيد تغلب - وائل بن ربيعة - المعروف بكليب، بمراع واسعة - ومَنْعه ماشية الآخرين من ارتياد أراضيه والرعي فيها والسقي منها. وقد نقم عليه أبناء بكر بعد أنْ قتل ناقة للبسوس - خالة جساس بن مرّة سيد بني بكر - كانت ترعى مع إبله.

أثار هذا العمل حفيظة ابن أختها جسّاس وعدّ هذه الفعلة إهانة له، فثار لكرامته وأقدم على قتل كليب. فنشبتْ إثر ذلك حرب ضروس بين الحيّين، زعم المؤرخون أنها امتدت أربعين سنة، كانت الحرب فيها تارة لبكر وتارة لتغلب، حتى تدخل عقلاء القوم وأصلحوا بينهما.

بكى المهلهل شقيقه كليباً بأبيات شعرية مؤثرة، عبّرت عن إصرار الشاعر على إنزالِ أشدّ العقاب بأهل بكر، والاقتصاص منهم والنيل من سراتهم وإبادة جمعهم، بعد أن أضفى على أخيه المقتول أصفى معاني الأخوة والإباء وصفات العزّة والقوة.

من أهم ما جاء فيها:

خذ العهدَ الأكيدَ عليّ عمري	بتركي كلّ ما حوت الديارُ
وهجري الغانياتِ وشرب كأس	ولبسي جبّة لا تستعارُ
ولست بخالع درعي وسيفي	إلى أن يخلع الليل النهارُ
وإلاّ أن تبيدَ سراة بكر	فلا يبقى لها أبداً آثارُ[1]

وهناك الباعث السياسي ورغبة كل قبيلة بالاستئثار بالحكم والسيطرة على الآخرين، كحرب الأوس والخزرج في مدينة يثرب، التي ظلت المنافسة السياسية بينهما قوية، والتي كانت عناصر النفوذ والسلطة مشرّعةً فيها لكل الاحتمالات. ويهدف إلى التحرر من تبعية الآخرين والاستقلال بالبلاد عن النفوذ الأجنبي، والتدخل في الشؤون الداخلية، كحرب ربيعة،

(١) محمد أحمد جاد المولى بك وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم: أيام العرب في الجاهلية دار إحياء الكتب العربية ١٩٦١ ص ١٥٢.

التي هدفت إلى الانعتاق من طاعة اليمن، أو يوم خزاز ـ هو الجبل بين البصرة إلى مكة ـ وبين معد العدنانية ومذحج القحطانية، وهو من أعظم أيام العرب في الجاهلية، تحررت فيه معد من سيطرة حِمْير، وانتصفت فيه من اليمن، وظلت على منعتها حتى جاء الإسلام[١].

وهناك الباعث الأجنبي الذي أتى استجابة لتطلعات الدول الأجنبية وطموحاتها السياسية والاقتصادية في المنطقة، وعبّر عن تسعير فكرة الاقتتال بين الأخوة العرب من مختلف القبائل والبطون، رغبة في السيطرة والتفوق، بناء على المقولة المأثورة فرق تسد، كيوم عين أباغ ـ وهو واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام ـ بين الغساسنة بقيادة الحارث بن جبلة ـ أشهر ملوك الغساسنة وأعلاهم همة وأبعدهم صوتاً ـ ، والمناذرة بقيادة المنذر الثالث ـ أشهر ملوك الحيرة وأكثرهم غزواً وفتحاً ـ. وقد قُتل المنذر وهُزمت جيوشُه، وسار الحارث إلى الحيرة فنهبها وأحرقها[٢]، وكيوم حليمة الذي نحسبه استمراراً ليوم أباغ لأنّ ملك الحيرة سار إلى الحارث طالباً ثأر أبيه عنده. وقد انتصر الغساسنة وانصرفوا بالغنائم والأملاك بعد أن أسروا كثيراً من عرب بني لخم المناذرة.

إضافة إلى ذلك فقد عرفت العربية حروباً عدة لبواعث مختلفة، تمحورث في الدفاع عن الكرامة والشرف، وبسبب اعتداء على ضيف أو حليف أو بسبب الرئاسة والسيادة وغيره من الدوافع، التي تثير البغضاء وتؤدّي إلى الحرب.

فمثلاً نشب التقاتل بين عرب الشمال العدنانيين أنفسهم في حرب داحس والغبراء ـ وهما فرسان ـ بين عبس وذبيان ابنيْ غطفان، من سنة ٥٦٨ إلى ٦٠٨، وكان سباقهما السبب في العداوة بين القبيلتين. اشتهر فيها اسم عنترة العبسي، البطل العربي والشاعر المعروف ودامت أربعين سنة، حدثت خلالها أيام كثيرة، وذهب ضحيتها عدد من عبس وذبيان، كان النصر في

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار بيروت، بيروت ١٩٨٢ جـ ١ ص ٥٢١.

(٢) محمد أحمد جاد المولى بك...: أيام العرب في الجاهلية ص ٥٢.

إحدى الوقاع لبني عبس ولخطة قيس بن زهير العبسي المحكمة، التي أمّنت له النصر. لكن الحرب لم تتوقف إلاّ بعد أن كرهها الجانبان وتوسّط السفراء، وتدخّل الحارث بن عوف المرّي وهرم بن سنان، وتوافقوا على أن يحتسبوا القتلى ويدفعوا الدّيات. وقد خلّد زهير بن أبي سلمى في معلقته فعل الحارث وهرم، وعُدّت معلقته أول دعوة في التاريخ إلى حل مشكلات الناس، من غير الرجوع إلى القتال والحرب. خاصة بعد أن أكد زهير أنّ الخسارة المادية أهون خطراً وأقلُّ عبثاً من النزاع بين قبيلتين، وأخفُّ رزءاً من سقوط قتلى من الأنام.

بينت الكتابات المختصة بأحوال عرب الجاهلية أنّ أيّامهما لا تعدّ ولا تحصى، وهي لا يكاد ينطفىء أوارها حتى تندلع من جديد، بسبب الثأر وتوارث الخصومة التي أضرّت بمصلحة العباد، وباتت نذير شؤم تلاحق العقلاء والحكماء، الذين رأوا ضرورة وقف شوكة الحرب وكسر حدّتها، من خلال احترام ميثاق الأشهر الحرم الأربعة: ذي القعدة وذي الحجة ومحرّم ورجب، ومنع الحرب فيها[1]، كي يتمكّن المتحاربون من التروّي وتهدئة النفس ومراجعة الحسابات والتفكير بأواصر الودّ والقربى، وفسح المجال أمام الحكماء أن يُصلحوا ذات البين، ويواسوا الجراح، ويخمدوا الأحقاد ونوازعها المضرّة. وقد التزمت العرب حرمة الأشهر الحرم، وتوقفت عن الغزو والقتال، إلا قلّة من المتقاتلين من قبائل طيء وخثعم وبعض بني الحارث ممنْ لم يرضخوا لهذا العهد، فأقدموا على نسأة الشهور وتأخيرها، وحرّموا مكانها أشهراً أحلّوا فيها القتال. وكانوا لا يحجّون ولا يحرّمون الأشهر الحرم، ولا البلد الحرام، وهم الذين ذكرهم الله في قوله تعالى: **﴿إنما النسيء زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كفَروا يُحلّوُنه عاماً ويحرّمونه عاماً ليُواطئوا عِدّةَ ما حَرّمَ اللّهُ...﴾**[2] وقد سمّت قريش الحرب التي وقعت بينها وبينَ غيرها من القبائل عام الفجار، لأنها حدثت في أشهر الحرم التي لا يجوز التقاتل فيها، ولأنّ

---

(١) ماجد عبد المنعم: التاريخ السياسي للدولة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥ ص ٥١.

(٢) سورة التوبة، آية ٣٧.

مقاتليها قالوا قد فجرنا وسميّت عندها حرب الفجار[1]. وفي هذا الصدد قال شاعرهم مفتخراً بالنسأة على العرب:

لقد علمت معدّ أن قومي كرام الناس إن لهم كراما...
ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحلّ نجعلها حراما؟[2]

تضاربت الأقوال حول هذه الحروب وعدد أيامها، وتباينت الأحاديث حول عدد وقعاتها، دخلتها مبالغات العصر وأطناب أحداثه الجسام، وتناولتها مغالطات الزمان وتعاقبتها إضافات الأجيال. فإذا كان الطبري ـ شيخ المؤرخين المسلمين ـ لم يذكر في كتبه سوى يوم ذي قار، بسبب أن الأيام الأخرى لم تثبت في رأيه، أو لم يرَ لها أهمية كافية في حياة العرب، فإنّ أبا الفرج الأصفهاني في كتابٍ أفرده لذلك، عدّد ألفاً وسبعمائة يوم ما بين جاهلي وإسلامي، في حين أنّ أبا عبيدة ترك أثريْن أدبيّيْن، تحدث في أحدهما عن خمسة وسبعين يوماً، وتحدث في ثانيهما ـ وكان مخصصاً لتصنيف وقائع الحرب ـ عن ألف ومائتي يوم[3].

لكنّ هذه الحروب والأيام لم تكن متواصلة ومستمرة على وتيرة واحدة، بل جاءت متقطعة، لا يتعدى بعضها اليوم الواحد. فإذا اعتبرنا أنّ حروب العرب بلغت ألفاً وسبعمائة يوم فتكون مدتها حوالي خمس سنوات، ليست شيئاً بالنسبة لعدد القبائل المتقاتلة والعشائر المتحاربة، ولما يحدث في العالم المتمدن الحديث، خاصة إذا أدركنا أن وقعات هذه الحروب قليلة. فحرب البسوس لم تتجاوز وقعاتها الخمس، إذ انّ بكراً وتغلب لم تقاتل إلاّ خمسة أيام، خلال أربعين عاماً، أي يوم في كل ثماني سنوات. وأحصى الأصفهاني في كتابه الأغاني قتلى هذه الحرب فذكر اثني عشر قتيلاً، ثمانية أنفار في تغلب وأربعة في بكر، هم محصّلة هذه الحرب الطويلة[4]. وحرب

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ـ دار المعرفة بيروت ١٩٨٢ جزء ثان ص ٢٤٧.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، دار الجيل بيروت ص ٣٩.
(٣) علي الجندي: شعر الحرب في العصر الجاهلي ص ٢٨.
(٤) إحسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ص ١٤٨.

داحس والغبراء قد وقعتْ فيها معركتان، اغتيل فيهما عوف بن بدر ومالك بن زهير، وكان عدد قتلاها ثمانية أنفار، عدا الرهائن السبع التي قتلها حذيفة بن بدر. أمّا معركة سُمَيْر التي نشبتْ بين الأوس والخزرج ودامتْ عشرين سنة، فوقعت في معركتين، وذكرتْ بعض الروايات أنّ المتحاربين كثيراً ما عاودوا القتال في تلك السنين.

يتبيّن من ذلك كله أنّ أيام العرب في العصر الجاهلي لا تكاد تذكر عواقبها الوخيمة، لو قُورنت بالحروب الدموية المعاصرة، التي شهدتها حضارة القرن العشرين، وتكون ادعاءات المستشرقين والأجانب عن بربرية إنسان البادية وهمجيته غير صحيحة، لأنّ الجاهلي كما هو معلوم قد أجبر أولاً على الحرب بسبب شظف عيشته وقلّة مورده، وثانياً لأنّ الطبيعة الصحراوية طبعت حياته بسمة الغزو والحرب، التي كانت السبيل إلى حل مشكلاته وإزالة التفاوت الاجتماعي والتوازن الاقتصادي، قبل مجيء الإسلام، وقيام دولته التي وحّدتْ القبائل في أمة واحدة، وأنصفتْ البشرية جمعاء.

لكنّ هذه الحرب لا يمكن لها أن تستمر أبد الدهر، وإنّ التاريخ ذكر مواقف المصلحين الذين عارضوا فكرة الحرب، وبيّنوا سلبياتها التي تُزهق أرواحاً وتُثكل أطفالاً، وترمّل نسوة وتبدّد أموالاً. وأشار إلى حالات أنكر فيها المتنورون الاستمرار في إراقة الدماء وإقامة الحروب، ودعوا إلى السلم والصلح، وحضّوا على التعقل ونبذ الأحقاد والكفّ عن عملية الانتقام.

فمثلاً قيس بن زهير في حرب داحس والغبراء، بعد أن شفى غليله واكتوى بنار الحرب وعواقبها الوخيمة، عبّر عن نفثات متألمة، فيها حزن وألم وندم، لأنّ أصّرة عزيزة عليه قد قُطعت من أطرافه، ودعا إلى السلام، وردّد في أكثر من مكان عبارات الشتم والذم، وجعل زهير بن أبي سلمى من قصائده أوسمة للساعين في الصلح والداعين إلى حقن القوم. فمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف لدورهما المميّز في الصلح بين عبس وذبيان،

وأشار إلى أنّ نار الحرب ستحرق الجميع، وتصبح كالوحش الضاري الذي يُحطم ثروة البلاد، ويورث حياة موبوءة بالعدوان والبغضاء.

على أنّ الصلح قد يسبقه تبادل رهائن في الفريقين المتحاربين، كما حدث مع الملك عمرو بن هند الذي أخذ ثمانين غلاماً من أبناء بكر وتغلب، قبل أنْ يصلح بينهما في ذي المجاز، وأنْ يحسب عدد القتلى من كل فريق عند الصلح، وفي حال زيادة القتلى في فريق، يدفع الفريق الآخر ديات الفريق الأول. وكانت دية الرجل الحر أو الصريح مائة جمل، وهي ضعف دية الحليف والهجين، لكنها قد تزيد وتضعف حسب موقع الرجل ومكانته في قومه، أو إذا مُثّل به بعد قتله.

إذا كان بدوي الجاهلية عرف الثأر كعملية انتقام ورد اعتبار النفس الموتورة وشرّ لا بدّ منه، فإنه تحلّى بصفات إنسانية، عُدّت في أوقاتنا الحاضرة من الطروح المثالية، كالحلم الذي ضُربت به الأمثال، والحكم التي ملأت الدنيا وشغلت الناس، والتي تعتبر من أعظم المبادىء والمواقف الإنسانية التي يجب أنْ يحتفي بها على الأقل الحاكم المسؤول.

الثأر وانعكاساته في مجتمع الجاهلية:

يُعتبر موضوع الثأر من أبرز مظاهر الحياة البدوية وأعرافها الاجتماعية، ويحتلّ حيّزاً كبيراً في حياة القبيلة، ويعود إليه معظم أيام العرب والوقائع الفردية. يحدث غالباً نتيجة حوادث فرديّة، لعلها تافهة، وغارات محدودة وضيّقة، سرعان ما تكبر فتضم أبناء القبيلة كلها، وتُصبح القبيلتان في عداوة دائمة، سواء كانت واترة تشنّ الغارات وتقيم الحروب، أو موتورة تُهتَك أعراضها ويُعتدى على حماها. لا تتوقف شظى حربها إلاّ بانتصاف الموتور من قوم القاتل، والأخذ بثأر القتيل، عملاً بمبدأ التماسك القبلي وبنظام عصبيّته البدويّة، التي فرضت على قوم القتيل طلب القود، كما فرضت على عشيرة القاتل حمايته والدفاع عنه.

وقد يلجأ الثائر الموتور ـ فرداً كان أو جماعة ـ قبل أنْ يُدرك وتره إلى طقوس بدويّة، كجزّ الشعر وتقصير الثوب والامتناع عن التنظيف والاغتسال

وأكل اللحم وشرب الخمر والاختلاط بالنساء، حتى يوفي رغباته ويحقّق حاجته ويأخذ بثأره.

تسبّب الثأر في تأجيج ضغائن وتوريث أحقاد، وبالأحرى قامت بسببه حروب طويلة، وشنت غارات وارتفعت ثارات، وأضحى الثأر شريعة خضّبت رمال الجزيرة العربية، وقانوناً وقائياً لا بدّ منه، لأنه وسيلة رادعة، يشعر البدوي في ظله بالأمن، في بيئة لا يسودها نظام، ولا يسيطر عليها قانون[1].

صار الثأر هاجساً يلاحق الفرد ويلازمه، وأمسى حاجةً تتطلّب الوقاية والاستشفاء، يلاحق المرء ويلصق به كظله، فهذا الشاعر تأبّط شرا ذهب النوم من عينيه وبقي يلحّ في طلب ثأره والنيل من غريمه، غير مبال بالموت والشهادة.

قد يبدو للوهلة الأولى غرابة هذا الواقع ومرارته، لكنْ بقليل من المعرفة نتفّهم حقيقة هذه الحياة، ونُدرك أهميّة الثأر الذي خضبّت شريعته أديم الجزيرة العربية، واحتلّ قوده جلّ الأعمال الحربيّة والأدبيّة، التي عرفناها مثلاً من خلال مواقف امرىء القيس بعد مقتل والده حجر على أيدي بني أسد، عندما انبرى الشاعر يقرّع أعداءه، ويعلن رفضه لحياة اللهو والمتعة. يقول «ضيّعني أبي صغيراً وحمّلني دمه كبيراً، لا صحوَ اليوم ولا سكرَ غداً، اليوم خمر وغداً أمر»[2].

أوجبت الحياة العربية في العصر الجاهلي أنْ يتساوى القاتل مع المقتول في المنزلة والشرف، وتشدّدت أحياناً في الاقتصاص من غريمها. فطالبت أنْ يكون الثأر ممّنْ هو أعظم شأناً وأقوى شكيمة، كما في حرب داحس والغبراء، لأنّ دم السيّد لا يكافئه إلاّ دم سيّد، ودم الحر لا يعدله إلاّ دم حر، وادّعتْ أنّ فكرة النفس بالنفس لا تروي الظمأ، أو لا تشفي غليل المفجوع، فرغبتْ باستئصال حلفاء القاتل وإبادتهم، ورفضت قبول الديّة،

(١) إحسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ص ١٢٠.

(٢) ديوان امرىء القيس: دار صادر بيروت ص ١٤.

وعدّتها في هذه الحالة ذلا وعاراً. فامرؤ القيس رفض قبول دية أبيه وقال «لقد علمت العرب أنّه لا كفء لحجر في دم، وإنّي لن أعتاض به جملاً أو ناقة، فاكتسبُ به سبّة الأبد وفتّ العضد»[1] .وأضاف «إنّ مقتل ألف من بني أسد لا يرضيه ولا يبوء بدم أبيه»[2]، وإنّ التفكير في أخذ الدية مقابل دم القتيل يعدّ عاراً لا يمحى، وطعنةً في شرف القبيلة تظلّ تدمي خزياً وخجلاً، وإنّ الفدية تكون مقبولة في حال وجود الأسرى مثلاً، وعدم وجود ثأر، أو في أحوال معينة، كوضع حدّ لحروب طال أمدها، أو حقناً لدماء حيّين من قبيلة واحدة، أو عجزاً عن إدراك الوتر من قوم القاتل، وأن فدية الأسير كانت عادة من الإبل، واختلفت تبعاً لمنزلة الأسير الاجتماعية. فكلما عظمت مكانته في قومه كانت الفدية أعظم.

كان الثأر في الجاهلية نتيجة منطقية لعقليّة معيّنة وعلاقات اجتماعية محدّدة، لأنّ العربي منذ وعى الحياة وأدرك معناها، فتح عينيه على تألق الألسنة وسماع صهيل الخيل وزئير الوحش، ولأن ملجأه وحماه كان ظهور الخيل ومقابض السيوف، التي رسّخت فيه صفات الفروسيّة، وقوّة المراس، وكثرة الفتك والنهب، والتي جعلت الثأر ـ على ما فيه من شر ـ يتّصل بكرامة العربي، ويضطره إلى الاقتصاص من المعتدي، ما دامت القوة الرسمية الحكومية غائبة، والبلاد خالية من وجود القانون الجنائي الذي أشار إليه بروكلمان بقوله «من الضروري أن يهرع كلّ فرد إلى استخلاص العدالة من قاتل نسيبه أو سالبه بالطرق الشخصية»[3]، وأن يعتمد الفرد على نفسه، ينمّي قدراته، ويحقق ضروباً من الشجاعة والرجولة، لا تصدّه هيبة الموت عن الإقدام، لأنها منية استقبلها، وحياة استدبرها، جنّتهم السيوف وعدتهم الصبر[4]. ولأن توطيد الأمن قد اعتمد أساساً على سمة العصر المميّزة «قانون الثأر» وشريعته، العين بالعين والسن بالسن والنفس بالنفس، وأصبح

---

(1) الأصفهاني: الأغاني جـ ٩ ص ١٠٥.
(2) إحسان النص: العصبية القبلية في الشعر الأموي ص ١٢٢.
(3) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم بيروت ط التاسعة ١٩٨١ ص ١٩.
(4)

رادعاً عن القتل، نجح في كبح جماح الاعتداء والعدوان.

ويبدو أنّ الضغينة سيطرت على عقل الموتور، وأفقدته التفكير المنطقي، وجعلته يقرن فكرة الثأر بأوهام خيالية من عنده، آمن بها واعتقد أنّ روح القتيل كانت تتمثل في شكل بومة تسمّى هامة أو الصدى، أو بالأحرى إن طائراً اسمه الهامة، يخرج من جسم الإنسان أو من رأسه يظلّ يصيح اسقوني اسقوني، ولا يكفّ عن الصياح حتى يُقتل القاتل ويُؤخذ بثأره.

ولعلّ الانتقام من قريب قاتل يكون أمراً صعباً، كون عملية الثأر تختلط بعاطفة الرحم والقرابة، ولأنّ النفس البشرية تصطرع بمشاعر إنسانية وعلاقات اجتماعية، فبالغ بعضهم في عفوهم وسمّوا بالحلماء، وتغلّبَ عوام الناس على كل الاعتبارات ورفضوا الركون إلى الدعة والهدوء ومصالحة الأقرباء، إلاّ في حالة الارتواء من القتل، وشفاء الغليل، أو في حالة استسلام الجاني، الذي يُعتبر عمله وصمة عار في جبين العشيرة، التي تفضّل أن تقتل الجاني على أن تسلّمه طوعاً، لأنّ حاسة الشرف العالية التي اتّسم بها البدوي هي المنطلقات الرئيسة التي قامت عليها حياته وصفاته الخلقية وأعماله الاجتماعية.

الفصل الرابع

الأوجه الحضارية في عادات العرب وأعرافهم

أ ـ سمات المروءة وأثرها في الجاهلية

ب ـ أسباب الضيافة العربية ومظاهرها الاجتماعية

ج ـ مفهوم الجوار وأثر الخفارة في الجاهلية

الأوجه الحضارية في عادات العرب وأعرافهم

عرفت حياة العرب في البادية عادات وقيماً لا تزال المجتمعات الحضارية والمتمدنة تثني على صفاتها، وتحمد مزاياها التي ترسّخت عند أبنائها، وأصبحت متجذّرة عندهم مع تعاقب الأجيال ومرور الأيام، بالرغم من الدراسات العربية الضعيفة وكتابات بعض المستشرقين ـ القديمة والحديثة ـ التي حاولت أنْ تشوّه حياة الاعرابي وتطمس تقاليده الحسنة، وتركز على سوءات مجتمعه وهفوات نظامه وهنّات أبنائه، التي اعتورت مسيرة تاريخه، بهدف فصل عرب اليوم عن ماضيهم العربي، وسلخهم عن محيطهم وتراثهم الإنساني.

لكنّ الإنجازات الضخمة التي شهدتها المنطقة العربية في السنوات الأخيرة ـ حفريات وآثار ونقوش ـ أكدت من جهة خطل ادعاءات الكتابات المشبوهة، وأظهرت من جهة أخرى محاسن الكثير من القيم العربية والعادات، التي حصّنت المجتمع بمناقبية خلقية، وبمواقف اجتماعية وسياسية، يجب الاستفادة منها وتطويرها لبناء مجتمع الحرية والتقدم.

ويعتبر الحديث عن عادات العرب في الجاهلية من أهم الموضوعات التراثية، لأنه يكشف مفاهيم معاصرة وأعرافاً متمدنة، تضنّ بها مجتمعات الأقمار الصناعية وحرب النجوم، وتؤكد ارتباطها العضوي في المنطقة، وأصالة انتمائها إلى المجتمع العربي القبلي، كونها القاعدة الفكريّة والخلفيّة الإيديولوجية لنظامه، الذي ترسّخت قيمه الأدبية والخلقية عبر الأجيال والقرون.

ولهذا نتفق مع اللغويين العرب الذين دمجوا بين الكلمات الثلاث ـ العرف والعادة والدين ـ ولم يفرقوا بينها، وأعطوها معنى واحداً ومفهوماً متقارباً، اختلط فيه الدين بالعرف، وأصبح من الصعب الفصل بينهما، رغم وجود بعض الخصائص التي تميّز الدين عن بقية الألفاظ، كما جاء في هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر عندما أساءت زوجته ضيافته، يقول:

دع المكارم لا ترحلْ لبغيتها واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناسِ[1]

علماً أنّ كلمة العرف عُدّت من أسمى معاني الدعوة الإسلاميّة، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿**خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾[2] وأنه ـ أي العرف ـ لا يقلّ أثراً عن فعل الدين في الفرد والمجتمع، خاصة إذا كان العرف أو بالأحرى العادة متجذرة في المجتمع ومتحكّمة في الحياة، لأنها ترفدها بقوة عظيمة، شأنها شأن أقوى النزعات الإنسانية والدوافع الاجتماعية، بدليل ما جاء في حديث الرسول ﷺ عن أنّه كان على دين قومه، أي على ما بقي فيهم من إرث إبراهيم وإسماعيل في حجّهم ومناكحتهم وبيوعهم وأساليبهم[3]، أو ما عُرف عن خطبة المجيز في الحجّ قبل الإسلام، عندما دعا إلى التمسّك بالعادات الجاهلية المتعارف عليها بقوله: «اللهم اصلح بين نسائنا. . . واجعل المال في سمحائنا. . . أوفوا بالعهد وأكرموا جاركم وأقروا ضيفكم. . .»[4] والتي ما زالت دراستها تستدعي الوقوف أمام محطاتها العظام، ترفد التاريخ وتمدّ الأجيال على مدى التاريخ، بقبسات خلقيّة ونفحات وجدانية، يطمئن لها الملهوف، ويستغيث بها المفجوع، وتهدأ إليها النفوس. ومن أهم هذه العادات التي توافق عليها الدارسون: المروءة ومظاهرها الاجتماعية.

---

(١) الحطيئة: ديوان الحطيئة ص ٢٥.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٩٩.

(٣) عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم، دار العلم للملايين بيروت ١٩٨١ ص ٨١.

(٤) الأصفهاني: الأغاني جزء ٣ ص ٩٣.

سمات المروءة وأثرها في الجاهلية:

شهدت الجزيرة العربية في العصر الجاهلي أخلاقاً رفيعة ومُثلاً عالية، جسدتها كلمة المروءة، التي لخصت مختلف عادات إنسان البادية وأعماله الإنسانية، والتي رآها نيكلسون تشتمل على صفات الشجاعة في الحرب والصبر في المكاره، والمثابرة على الثأر وحماية الضعيف والحدّ من تسلط الظالم، فضلاً عن مزيّة الكرم وسمة الضيافة، وغيرها من الأفعال الحسنة والمواقف السامية. وقد اختصرها بعضهم وعدّها من المآثر الخالدة التي تتذاكرها الأمم والشعوب، وتعتزّ بها الحضارات. وفسّرها أهل اللغة الجهر بالعمل، والإفصاح عن الشيء علانية، ورفض ما يستحي المرء فعله جهراً، وهذا يعني تنكر العربي لصفة السريّة ونتائجها الوخيمة، التي تُربك المجتمع وتجعل أبناءه يعيشون حياة ملؤها الألغاز والغموض والتكتّم، وبالأحرى يخيّم على العباد أجواء ضبابية تعتورها تجمّعات سريّة، وتكتلات خفيّة، غير مباحة، تحظّر على مريدها إفشاء التعاليم وإعلان المخطّطات، مما يؤكد أنّ ابن البادية اهتم بسمعته، وافتخر بصيته الحسن ومناقبيته الحميدة، التي جعلت واحدهم يفتخر على خصمه في منافرة معه، إنه خير منه سمعة وذكراً[1]، وإنه تحاشى العمل الذي يُلحق بسمعته السوء، ويصمه بالعار والفضيحة، وإنّه فضّل وأد الفتاة خوفاً من الفضيحة والعار والسمعة السيّئة، حتى لا يفرّط بشرفه ولا يسلّم عرضه، وهو الذي عرفناه يمتشق سلاحه لمجرد إهانة وُجّهت إليه، لاستهانته بأعظم الأمور وأفدح الشرور، ولأنه يعزّ عليه تلطيخ أخباره وتلويث سمعته بالشوائب والمنكرات.

أسباب الضيافة العربية ومظاهرها الاجتماعية:

ألف العرب الضيافة منذ القدم وعُرفوا بها، وكانت ركناً أساسياً في حياتهم، جعلتهم يتفوقونَ بها على غيرهم من الشعوب. ولم تعرف أمة أحرص من العرب على الضيافة والاحتفاء بالضيف وتكريمه، وإنزاله على

(١) الأصفهاني: الأغاني جزء ١٦ ص ٢١٥.

الرحب والسعة. وهي سجيّة العربي اختصت به، وكانت قطب الرحى ومادة الأدباء والكتّاب، الذين التفوا من حولها يمحضونها التأييد في مدائحهم الخاصة والعامة، ويمنحونها الثقة والاحترام، وبقيت على مرّ الأيام وما زالت مزيّة حميدة، أضفت على إنسان البادية متعة أدبيّة وسمة إنسانية، وأصبحت مظهراً حضارياً متقدماً يُنسب إليها فقيل الضيافة العربية، وأثراً نبيلاً في دنى العالم والرسالات العالمية.

بيْد أنّ المستشرقين والشعوبيين منهم، لم يعطوا هذه الخاصية قيمتها الفريدة، فتفننوا في تأويل هذه الظاهرة النبيلة، وتشويه منطلقاتها، فزعموا أنها حاجة لا مزيّة، فرضها واقع لا يعرف فنادق أو مطاعم، اضطر أبناء الصحراء فيها إلى استضافة بعضهم بعضاً، انطلاقاً من مبدأ المعاملة بالمثل الذي اقتضته ظروف الحياة المعيشية.

لكننا نرى أنّ الضيافة طبيعة عند عرب البادية ومنفصلة لحد كبير عن الحاجات الاجتماعية، بدليل أنّ الضيافة واجبة على الفقير والغني، وأنّ المضيف ينفق المستطاع وأكثر، وربما يرقد وأهله يومهم على الطوى، من دون أن يجدوا ما يسدّون به الرمق، لأنّ الضيوف ذهبوا بكل ما عنده، أو ربما يأخذ الأعرابي جمل جاره كرهاً أو طوعاً ويصنع منه طعاماً إمعاناً في ضيافته، حتى أنّ بعض الضيوف كانوا يطلبون الطعام الذي يشتهونه والغطاء الذي يحبونه[1] فحاتم الطائي وصل كرمه إلى التضحية بأعز الأشياء وأثمنها لتوفير الرفاه لضيفه، الذي على حد قول بلاشير يكفيه أن يتقدم في سفره بوصفه ضيف الله حتى يسرع القوم إلى إغاثته ومقاسمته غذاء الأسرة[2]، وهاشم بن عبد مناف كان له جفان يأكل منها الراكب والقائم، إذا سقط فيها صبي غرق، وقد ضرب بها المثل[3]

---

(١) بولس سبور البولسي: عوائد العرب، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٣ ص ١١.

(٢) بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٣ جـ ١ ص ٤٤.

(٣) الأصفهاني: الأغاني جـ ٢ ص ١٣٢.

وقد تعارف العرب أنّ الضيافة ثلاث ليالٍ وثلاثة أيام، يمكن للمضيف تجديدها وزيادتها، وافتخروا بالجود أثناء الشدة وزمن القحط والجدب، وأيام الشتاء الباردة[1]. وعبّروا عن الكرم ـ أهم مظاهر الضيافة ـ بألفاظ كثيرة مثل الجود والسماحة والندى، بسبب شيوعه في مجتمع الجاهلية، وذيوعه عند الأصفياء من سراة القوم، لأنه ينشر محاسن خلقهم الاجتماعية، ويظهر غناهم وقدرتهم في مساعدة الناس، ويجعلهم من الأسياد الذين كثيراً ما يخوّلهم قومهم الزعامة والسيادة، بدليل أنّ بعض السادة كعبد الله بن الزبير خصّص دوراً ينزلها الغرباء وأبناء السبيل، ويغشاها الناس من دون إذن منه، وأنّ قيس ابن مسعود اقتسم حجرة من بيته للضيوف، وأفرد كمية من إبله ـ مائة ناقة ـ كان ينحرها لهم، وإنّ ملكاً أقام حفلاً احتفاء بالكرم ومنزلته في نفوس العرب الجاهليين، ووضع تاجه على رأس أكرم رجل، بعد أنْ منحه وساماً وأعطاه ما شاء، ويُقال إنه استبقاه عنده ونادمه مدة ثم أذن له بالانصراف[2].

ولعل من نوافل الأمور أن يكون كرم الأغنياء وذوي اليسار في بعض الحالات إهداراً للمال ومضيعة للحقوق، لكنّ الإنفاق لسدّ حاجة صديق أو فاقة محتاج في فصل الشتاء خاصة، حيث يكتوي فقراؤه من برده القارس ورياحه الشديدة وأعشابه الذابلة وصيده القليل، هو الجود بعينه، الذي يقتل جوع الشقاء، وتأمر به الأخلاق، ويغبطه العقل، ويعود في النهاية بأفضل الفوائد على الإنسان والمجتمع، والذي إذا أضيف إلى كرم النفس البشرية كان الغاية التي يبلغها الجواد.

وقد فاضت كتب الأدب والتاريخ بأخبار الكرم والجود، وكانت زينة للبحث وحلية للدرس، لأنها تهز الأريحية، وتبعث على المروءة وتدعو إلى الأخوة الحسنة، وذكرت الصفات السيئة التي ذمّها العربي مثل صفة البخل والبخيل، وعدّتها عاهة تحجب الفكر وتفسد الطبع وتفقد المروءة، وعادة مرذولة عابها الجاهلي وانتقص من صاحبها. ولهذه الغاية سمّى الجاحظ كتابه

(١) حسن الحاج حسين: الحضارة في العصر الجاهلي: المؤسسة العربية بيروت ١٩٨٤ ص ٩١

(٢) ظافر القاسمي: الحياة الاجتماعية عند العرب: دار النفائس بيروت ١٩٧٨ ص ١٣٥.

البخلاء كونها تحطّ من شأن صاحبها وتدعه عرضة للمذمّة.

كان من عادة العربي في الجاهلية أنْ يوقد النار ليلاً في المرتفعات حتى يراها الضيف، ويهتدي بشعاعها الغريب، ويأنس بها المحتاج وساري الليل. وتُعرف هذه النار بنار القرى أو نار الضيافة. وقد لجأ بعضهم إلى إحراق العيدان الرطبة، ليشمّ العميان رائحة الطيب ويهتدوا إليها، واعتمد قسم عواء الكلاب ونباحها ليتعرّف الغرباء إلى منازلهم.

وقد ذاعت شهرة كوكبة من ألمع رجال البادية الأجواد، مثل حاتم الطائي الذي أصبح اسمه يُذكر كلما ذُكرت الضيافة أو الكرم عند العرب، لأنّه يُكرم ضيفه، حباً بصفته الطيّبة، ويُؤثر المحتاجين ويعد غلامه بالعتق، إنْ جاءت النار بضيف[1]، ويجود على الآخرين ضناً بالجود وحرصاً على السمعة الطيبة والصيت الحسن، الذي يبقى بغياب الشخص وتعاقب السنين. وهذا ما نتمثله من قول حاتم لامرأته ماوية:

أماوي إنّ المال غادٍ ورائحُ ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ[2]

ولهذا أشاد الرسول ﷺ بحاتم الطائي أمام ابنته سفانة - الأسيرة - التي طلبت منه أنْ لا يشمت بها أحياء العرب، لأنها بنت سيّد كان يفكّ العاني، ويفرج عن المكروب، ويحمي الذمار، ويدعو إلى السلام، ولا يردّ صاحب حاجة. فأثنى عليه الرسول ﷺ وأمر بإخلاء سبيلها قائلاً: «يا جارية هذه صفة المؤمن، لو كان أبوكِ إسلامياً لترحّمنا عليه، خلّوا عنها فإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق».

وقد أُطلقت ألقاب خاصة على مَنْ تمثلوا هذه الصفات فنُعت خالد بن زيد بمطعم الطير لأنّ الطيور تشارك ضيوفه الطعام. ونُعتَ بعضهم بمطاعيم الريح لأنّهم يطعمون كلما هبّت الريح، ودُعي قوم من قريش بـ «زاد الركب» أو أزواد الركب أمثال أبو أمية بن المغيرة المخزومي، والأسود بن أمية، الذين كانوا لا يدعون غريباً يمرّ أمامهم من دون أنْ يقروه ويستضيفوه[3].

---

(١) مصطفى الشكعة: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ص ٧٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٧١.

(٣) الأصفهاني: الأغاني جـ ٩ ص ٤٩.

هذا بعض ما تحلّى به العرب في الجاهلية من خلق الضيافة وآدابها، التي ميّزتهم عن غيرهم من الأقوام وانفردوا بها حتى أيامنا الحالية، حيث فترت أريحيّة الناس عند أبناء المدن، الذين نسمع «بغرفة الضيوف» عندهم قولاً من الماضي وأثراً من التاريخ، في حين أنها ما زالت قائمة عند أبناء البدو. وأنّ المفاضلة بين إنسان البادية وإنسان اليوم غير واردة، للتمايز الكبير في تصرفاتهما، فكيف بملوك اليوم وكبار الحكام والزعماء، الذين لا يتورّعون عن تقليد أفخم الأوسمة والنياشين للمتخمين من أصحاب الثروات الطائلة، والمنافقين السياسيين الذين يبتاعون كرامات الناس ويستذلونهم، من وراء وعود كاذبة وأحاديث موهومة.

مفهوم الجوار وأثر الخفارة في الجاهلية:

عرفت البادية عادات حميدة لا تزال آثارها تدقّ أبواب المجتمعات الحديثة، التي وللأسف تأخرت عن بعض المفاهيم البدائية الحسنة والأعراف التاريخية النبيلة، وقصّرت في اختراق الآفاق البعيدة وتقديم نظرات مستقبلية، يستشرف منها إنسان اليوم الأمن والسلام.

وكانت خفارة عرب الجاهلية وحتّى الجوار فيها من أهم عادات الجاهلية وأعرافها القديمة، وهي لا تقلّ أثراً عن صفات الكرم والضيافة، وقد خطت بالمجتمع مسافات متقدمة، ليس من البساطة إغفالها ونسيان دورها. وعُرفت بعصبيّة الولاء وعصبية الجوار، التي تعني أنْ يلتحق فرد أو جماعة، بفرد قوي يستجير به ويطلب حمايته ودفع الظلم عنه، فإذا قبل المستجار ذلك أعلنه في المواسم وعلى الأشهاد، وأصبح المستجير في حمى المجير، كأنه فرد من أفراد عائلته، ويظلّ هذا الحق محفوظاً حتى يتخلى المستجير عنه على الملأ[1].

أما عصبيّة الولاء فهي أن يلحق فرد أو بطن أو قبيلة بقبيلة أخرى، وأنْ يكونوا مواليهم ويقطعوا صلتهم بقبيلتهم السابقة، وهذا الولاء مغاير لولاء

(١) محمد أسعد طلس: تاريخ العرب دار الأندلس ط ثانية بيروت ١٩٧٩ مجلد ١ ص ٨٨.

الرق والعبودية، لأنه ولاء الاستنصار والاعتزاز والقوة، وكان لهم كامل حقوق القبيلة واحترامها. وبمعنى آخر أنه إذا منح فرد حقّ الجيرة، تعيّن على القبيلة بأسرها أنْ تقرّ جواره، وأنّ تبذل جهدها وكلّ ما في وسعها من أجل خفارته وتأمين سعادته، وأنه في حال نكث العهد وتنكّر الميثاق، يوجّه إليه اللوم والتقريع، ويغدو صعباً عليه العيش بعاره.

أشار إلى ذلك أحد الغربيّين في حديثه عن العربي المنتمي إلى قبيلة ما في القرن العشرين، عندما أكد أنّ أسوأ ما يخشاه أحدهم، هو إلصاق العار باسمه والتعريض بشخصه وتسويد وجهه، وأنّ الفشل في حماية المستجير، يدفع المرء إلى أنْ يربط خرقة سوداء بعصا طويلة، ويتجوّل في أحياء العرب، معرّضاً بفشل مجيره، صائحاً «سوّد الله وجهه»[1]

وخير مثل نسوقه في هذا الصدد، ما عُرف عن السموأل، وموقفه الذي افتدى به مستجيزه امرأ القيس بفلذة كبده، يوم رفض أنْ ينكث عهده ويخون وعده بقوله: «فلستُ أخفر ذمتي ولا أسلّم جاري»[2]، لأنّ العادة كما أشرنا سابقاً جرت على أنّ مَنْ يضع نفسه تحت حماية الأعراب ولو كان من أعدائه، أصبح في جواره ومن أفراد أسرته، لا يستطيع أحد أنْ يعتدي على حياته المقدسة، التي يدافع عنها الإعرابي أكثر من دفاعه عن نفسه، بدليل أنه في حرب البسوس أسر الحارثُ بن عباد المهلهلَ، وكان خصمه وعدوّه، متخفياً يوم التحالق، ولم يعرفه، فقال الحارث له: دلّني على المهلهل ولك ذمّتك. ولما عرّفه المهلهل بنفسه، وكان ذا رأي ومكيدة، اكتفى الحارث بجزّ ناصيته وأطلقه، وإنّ بعض أعراب البادية بالغ في الإجارة، وتمادى في الحماية، حتى أنّ أحدهم استجار ضد الموت. رُوي أنّ عامر بن الطفيل قال بعد أنْ قبل إجارة الأعشى من الموت: «إنْ متَّ وأنتَ في جواري بعثتُ إلى أهلك بالديّة، وإنّ حارثة بن مر الطائي ضُرب به

(١) مونتغري وات: الفكر السياسي الإسلامي، ترجمة صبحي حديدي دار الحداثة بيروت ١٩٨١ ص ١٦ ـ ٤١.

(٢) علي الجندي: شعر الحرب في العصر الجاهلي ص ٤٧.

المثل في حماية الجراد، عندما ركبَ فرسه وحمل رمحه ورفض أن يتعرض لهم أحد من القوم أو يطردهم، طالما أنّهم بجوار فنائه، وطالب بالانتظار حتى تقوى أشعّة الشمس وتحمى عليهم ويطيروا. فقيل «أحمى من مجير الجراد»[1]. وإنّ المبالغات عند عرب الجاهلية جعلت الجن والسعالي تجير التائه الذي يرفع صوته قائلاً: إنّا عائذون بسيّد هذا الوادي، ويُصبح في حمايتها وخفارتها[2].

ولعلّ من المفيد أن نقول إنّ عرب الجاهلية أجاروا القوافل الأجنبية التي كانت تمر في أراضيهم وقدّموا لها الحماية من كل اعتداء وغزو، مقابل جعالة صون الممتلكات وتأمين السلامة، وإنّ الخوّة وعرفها أمر حيوي بالنسبة إلى القبائل والعشائر، التي اعتمدت الفلاحة والزراعة مصدراً للعيش، لأنه في سنوات القحط وانحباس المطر، يضطر البدوي إلى الغزو والإغارة على المناطق الزراعية المجاورة، التي تفضّل قبائلها المستضعفة دفع الخوّة من غلّاتها لقاء حماية القبائل القوية.

كان من الطبيعي أن نؤثر مقومات هذا المجتمع ونفتخر بأفعاله التي نفتقدها في حياتنا المتمدنة، التي وللأسف لم تعد ترعى حرمة، ولا تصون عرضاً، ولا تهاب ذلاً ولا تخاف عاراً، في حين أنّ البادية ذادت عن الجار، وصانته من كل اعتداء، وعرف المجير فيها بأنه منيع حامي الذمار، لأنه يثور على من يعتدي على جاره، ويمتشق الحسام للدفاع عن شرفه الممتهن، والانتقام من المتجرىء على الجار المحمي[3]. وهو أبداً مهيأ إلى إثارة العنف، واستباحة الحياة إذا شعر أنه غبن، أو غُضّ من كرامته الشخصية.

حافظت البادية على مناعة أبنائها، وعضدت عفّتهم واعتبرت عزّة النفس دستور البلاد. وخير ما نتمثّل به في ختام هذه الدراسة قول عنترة:

أغشى فتاة الحي عند حليلها وإذا غزا في الجيش لا أغشاها

---

(1) حسن الحاج حسين: حضارة العرب في العصر الجاهلي ص ١٠٤.

(2) الجاحظ: الحيوان جـ ٦ ص ٣١٧.

(3) حسن الحاج حسين: حضارة العرب في العصر الجاهلي ص ١٠٥.

وأغضّ طرفي إنْ بدتْ لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

أو رثاء الخنساء لأخيها صخر وتنويهها بعفّته وغضّه الطرف عن النساء:

لم تره جارة يمشي بساحتها لريبة حتى يخلي بيته الجار[1]

(١) عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب ص ٦٠٩.

الفصل الخامس

الممالك العربية

أ ـ مملكة الحيرة وحضارتها الأدبية والعمرانية

ب ـ مملكة الغساسنة وحضارتها الأدبية والعمرانية

ج ـ مملكة كندة ومعالمها الحضارية

الممالك العربية

أظهرت الدراسات التاريخية، أنّ قيام الممالك العربية في شمالي الجزيرة العربية، يعود أساساً إلى إرادة الدول الكبرى - الروم والفرس - ورغبتها في حماية حدودها من غزوات البدو المتتالية، وصدّ قبائل العرب من الإغارة والاعتداء على قوافل الفرس والروم، وبيّنت العوامل المتشابهة في نشأة كل من إمارة الغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة، وأشارت إلى أنّ كلاً من دولة الفرس والروم، قد أقامت علاقات جيدة مع الجماعات العربية القريبة منهما، واصطنعت زعامات قبليّة، كانت لها بمثابة حرس حدود، ساعدتهاعلى توفير الأمن والاستقرار. وأوردت بعض المصادر أنّ أمراء الحيرة اللخميين كانوا صنائع للفرس، وأنّ أمراء الشام الغساسنة والضجاعمة من قبل، كانوا صنائع للروم. وكان لهذه الممالك نفوذ واسع في جزيرة العرب، ولاسيما المناطق المجاورة لها، حيث كانت السياسة فيها تسير وفق المصالح الفارسية والرومية. وكان على الغساسنة والمناذرة حماية الثغور المتاخمة للقبائل العربية، وجمع الضرائب والأتاوي وتقديمها للفرس والروم.

بذلك وفّر الفرس والروم عناء المخاطرة من ولوج الصحراء القاسية، وعبء استخدام قواتهم النظامية في تعقب غزوات العرب، إن لم نقل أنّ قواتهم غير قادرة على ضبط تحركات الأعراب وكبح جماحهم، لسرعة فرّهم إلى الصحراء وعجز الروم عن تعقّبهم ومطاردتهم في تلك المهالك والبوادي.

من هنا نتفهّم أسباب اصطناع الروم والفرس شيوخ بعض القبائل الكبيرة بالهدايا والأعطيات السخيّة والامتيازات والألقاب، ومساعدتهم في إنشاء إمارات قوية على أطراف بلادهم، ليقوموا بحراسة الحدود ومراقبتها، وملاحقة القبائل التي تتجاسر وتغزو الحدود منتهزة مواطن الضعف.

ويبدو أنّ قيام هذه الممالك في مناطق قريبة من العراق وبلاد الشام، كان بداية حياة منظّمة، أخذت تشقّ طريقها لتقبّل الأفكار الجديدة، وبناء المجتمع المتمدن، إثر تصدع سد مأرب وانفجاره الكبير المعروف بسيل العرم، في أواخر القرن الثالث للميلاد، حيث أغرق الزرع والدور، واضطرت القبائل إلى الرحيل عن أماكنها، وتفرّق القوم أيدي سبأ. فهاجر قسم من قبيلة الأزد اليمنية مع عمرو بن عامر ونزلوا قرب مكة، وصار قوم إلى يثرب ومنهم الأوس والخزرج، وسار آخرون إلى أرض السواد في العراق وهم المناذرة أمراء الحيرة، وسارت مجموعة من آل جفنة إلى الشام وأسست دولة الغساسنة. ولعلّ تاريخ حرب المناذرة والغساسنة ـ وهم أبناء عم ومن دم واحد ـ يعود إلى سياسة الأمبراطوريتين القديمتين والحرب بينهما.

مملكة الحيرة وحضارتها الأدبية والعمرانية:

تحدثت كتب الإخباريين عن أنّ القبائل التي نزلت وادي الفرات هي خليط من قبائل عدة ـ قحطانية وعدنانية ـ استوطنت الحيرة، وأقامت علاقات جيدة مع الدولة الفارسية المجاورة، التي وضعتها تحت سيطرتها واستخدمتها في مصالحها ودفعت لها جعالة، لقاء ردّ الغارات القبلية والوقوف في وجه الدولة الرومانية.

تأسست مملكة الحيرة حوالى عام ٢٤٠م، وذكرت بعض المصادر عام ١٩٥م في عهد الملك الفارسي سابور الأول ٢٤١ ـ ٢٧٢، الذي كان له اليد الطولى في إقامة هذه المملكة، وتنصيب المناذرة ملوكاً عليها، لحماية حدود بلاده من غزوات البدو وغاراتهم من جهة، ومساعدته في حروبه مع الروم ـ أعدائه التقليديين ـ وحلفائهم العرب الغساسنة من جهة أخرى. وعاشت

أربعمائة سنة وتمتّعت باستقلال شبه ذاتي، وخضعت عام ٦٠٥م للدولة الساسانية، وظلت مرزبة فارسية إلى أنْ جاء النبي محمد ﷺ، ودكّ خلفاؤه من بعده دولة الأكاسرة واستولوا على بلاد فارس.

ويُعدّ عمرو بن عدي اللخمي الذي تُنسب إليه ملوك آل نصر في العراق، والذي يُعتقد أنّ الملك سابور الأول عيّنه ملكاً على العراق، المؤسّس الحقيقي للمملكة اللخمية[١]، كونه أوّل مَنْ اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب، وأوّل ملك مجّده أهل الحيرة، وقد كان منفرداً بحكمه مستبداً بأمره، ساعده تحالفه مع الفرس على تقوية نفوذه، ضد القبائل النازلة في العراق. أتى بعده ملوك عظام اشتهرت الحيرة في أيامهم، وتنوّعت الأعمال العمرانية والآثار الأدبيّة والفنيّة فيها، بعد أنْ تخطّت المملكة مهمّتها الأساسية ـ حماية دولة فارس ـ وجاب أهلها الأقطار يتاجرون ويعلمون القراءة والكتابة[٢]. وسرعان ما نافس أهلها أكاسرة الفرس وقياصرة الروم في الترف والعظمة، وأضحت قصورها مزدانة بأثمن الأثاث، وحدائقها مكلّلة بأعزّ الأزهار، وتمكنت من أن تنقل جوانب من ثقافة الفرس، وألواناً من حضارتهم إلى عرب الجزيرة، الذين استخدموا السفن الصغيرة والكبيرة وشقّوا عباب البحار، ونقلوا تجارة الهند وعُمان والبحرين إلى تدمر وحوران[٣].

تعود تسمية الحيرة إلى لفظة حرتا السريانية ومعناها المخيّم والمعسكر، وتقع بالقرب من مدينة الكوفة. ساعد موقع بلادها الجغرافي والتجاري على ازدهار اقتصادها وإنماء زراعتها ورعي مواشيها، واكتظّت وسواد العراق بالنخيل، واتّصفت بأرض خصبة وغنيّة، سقاها فروع من نهر الفرات الذي بُنيتْ على ضفافه. وعَرفتْ مُناخاً جيداً وهواءً طيباً وطبيعة جميلة، أهّلها لتكون مقْصف العرب ومهوى أفئدتهم ومطْرح آمالهم، وساعدها على استقرار حكم المناذرة، الذين عاشوا حياة حضرية مترفة

---

(١) نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم، دار الفكر بيروت ١٩٧٥ ص ١٧٦.
(٢) عرفان حمور: أسواق العرب ص ٣٠.
(٣) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في العصر الجاهلي ص ٢٩٩.

اتسمت بالصبغة الفارسية وأساليبها في تنظيم الجيش وإقامة الحروب، وعُرف أهلها بالكتابة، فاستخدمهم الفرس في الترجمة بينهم وبين العرب.

وقد تبارى الإخباريون في وصفها فقيل: «يوم وليلة في الحيرة خير من دواء سنة»[١]، وقيل: «بيْتة ليلة في الحيرة أنفع من تناول شربة»[١]. وسمّيت بالحيرة الروحاء لبياض مبانيها وحسن عمارتها[٢]، وقد ذكرها الشعراء الذين افتتنوا بخمرها ومجالس شربها وارتياد ملاهيها وحاناتها؛ التي أغرت الشباب بحضور مواسمها، والمشاركة في نشاطات قيانها المتنوعة، والتي عدّها بعض المؤرخين أكبر مركز للهو في المنطقة، لأنها كانت تجذب الماجنين، وتجلب عشاق اللهو من جميع أنحاء الجزيرة.

كان أهل الحيرة أكثر سكان الجزيرة تمدّناً، لأنهم الأكثر استقراراً ورخاء، فرشوا قصورهم بأثمن الأنواع، وسترت حدائقهم بأروع الأزهار، وشقّت قواربهم الساطعة الأنوار ليالي الفرات وهي تحمل أمهر الموسيقيين. وسمح اقتصاد البلاد الجيّد باقتناء الرياش النفيسة، واستخدام الأوراق الغالية، والتطيّب بالبخور، والتضمّخ بالمسك والعنبر، وراح بعض العرب يطلقون عنان خيالهم في الإخبار عنها، فرووا أن قصورها الساحرة اضحت أجمل مساكن العرب وأطيبها[٣].

شهدت الحيرة في عهود ملوكها الكبار حركة علمية وعمرانية. فعرفت في عهد الملك النعمان الأول ـ المعروف بالنعمان الأعور أو النعمان السائح ـ نهضة عمرانية كبيرة، تجلّت في بناء قصري الخورنق ـ تعود الكلمة إلى خورنق كاره وتعني بالفارسية الضيافة ـ، والسدير ويقع قرب الخورنق ـ يعتقد أنه معرّب من الفارسية ويعني القبة ـ اللذين يعتبران أعجوبة معمارية في عصره، وبنيا على الطراز المعماري الساساني، الذي كان على شكل قبة

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٦ ص ٢١٥.

(٢) نفس المصدر: ص ٣٩٣.

(٣) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ١١٦.

واحدة متداخلة في ثلاث أخر، ورواق للملك وخواصه، وقطعة للجيش. وقد بنى قصر الخورنق سنمار الرومي في عشرين سنة. وكان جزاؤه على إتقانه عمله القتل رمياً من فوق سطح القصر، وصارت نهايته التعسة مضرب المثل في سوء الجزاء.

ولكن أهل الحيرة عرفوا قصوراً، وإن لم تبلغ شهرة الخورنق والسدير، نذكر منها قصر الصنبر والعذيب وقصر سندار والزوراء وقصر الأبيض، كذلك بنوا كنائس وأديرة كثيرة، بسبب تنصّر المناذرة مثل دير هند الكبرى - أم عمرو بن هند - وهو من أشهر الأديرة، ودير هند الصغرى التي عاشت وماتت ودفنت فيه، ودير الجماجم ودير عبد المسيح ودير اللج الذي يقال إن أبا قابوس بناه وأنه أجمل أديرة المدينة.

ويبدو أن الحيريين اقتبسوا فنّهم المعماري عن الفرس، لكنهم أضفوا عليه من ذوقهم، وطوّروا نظامه وأضفوا عليه من روحهم الشيء الكثير، وغدا فناً خاصاً بهم وطرازاً معمارياً مستقلاً، ونموذجاً يقتدى، خاصة في ميدان القصور والأديرة والكنائس في العصور العباسية[1]

وعرفت الحيرة نهضة أدبية وازدهاراً علمياً، نشأ عنه معاهد تعلّم الكتابة فيها المرقشان الأكبر والأصغر وبشر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وآل أيوب، الذين لما لبثوا أن تولّوا أعمال الكتابة في قصور اللخميين وبلاط كسرى[2]. وذهب بعض الدارسين للفنون التشكيلية إلى أن الخط الحيري هو أساس الخط العربي ومثل أقدم أشكاله، وأن الخط العربي الكوفي هو تطور للخط الحيري الذي عرفه عرب الحجاز عن طريق عرب الحيرة في الفترة السابقة لظهور الإسلام، وأن ثقافة الحيرة تأثرت طبعاً بالثقافات الثلاث الفارسية والسريانية واليونانية، وتمكنت من نقل علومهم وآدابهم إلى الأقطار العربية، خاصة بعد أن اشتغل بعض السريان، ممن سكنوا بلاد الحيرة، بحركة الترجمة التي ازدهرت في العصور العباسية الزاهية.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ص ٨٧.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٣٩٣

لم تقتصر حضارة الحيرة على المنجزات العمرانية والأدبيّة، بل تعدتها إلى مختلف أنواع الفنون والعلوم. فقد عمل أبناؤها في صناعات متنوعة، نسجوا الحرير وحاكوا الكتّان وغزلوا الصوف، ورصّعوا بعض الثياب بالحجارة الكريمة والذهب، واشتهروا بالأكسية والأثواب الحيرية، وعرفوا صناعة الأسلحة ـ سيوف ورماح وسهام ـ، وأنتجوا تحفاً معدنية وأدوات زينة مذهّبة ومرصّعة بالجواهر واليواقيت، ودبغوا الجلود وصنعوا العاج.

إن جمال الدنيا وبهجة مناظرها وعظمة عمرانها، دفع صاحب قصر الخورنق الملك النعمان إلى أن يتأمل حالة الكون ودورة الحياة، وأنْ يتمعّن في الوجود ومنطلقاته النظرية والفلسفية، وأنْ يفكّر في الدنيا والآخرة، وهو جالس في أعلى القصر، المطلّ على النجف الشريف يرى مناظرها الفاتنة ـ بساتين وجنان وأنهار ـ فيتيقّن أنّ هذه الحال لا تدوم، وأنّ الآخرة هي أجدى وأبقى، مما يجعله يكره الدنيا، ويترك ملكه ويسيح في الأرض، ويلبس المسوح ويخرج مستخفياً، يعبد الله ملتمساً ما عند الخالق العظيم[(١)].

بيد أنّ بلاد الحيرة عرفت ملوكاً اشتهروا بأعمالهم الحضارية، وأثروا في مختلف جوانبها التاريخية والأدبية والعمرانية. ويُعتبر المنذر بن ماء السماء ٥١٤ ـ ٥٥٤ من أشهر ملوك الحيرة اللخميين، وكان عصره من أزهى عصور المناذرة. فقد بنى كنائس كثيرة ولعب دوراً في حروب فارس وبيزنطية في بلاد الشام، وحقق نجاحاً بوصوله إلى انطاكية، وعرف عنه أنّ له يومين: يوم نعيم ويوم بؤس. فَمَنْ طلع عليه في يوم النعيم أكرمه وحباه بهدايا، ومَنْ خرج إليه في يوم البؤس قتله. ويُروى أنّ عبيداً بن الأبرص أحد الذين قتلوا في هذا اليوم المشؤوم، وأنّ الملك أقلع عن هذه العادة لتنصّره وتأثره بوفاء حنظلة بن أبي عفراء، الذي طلع عليه في يوم بؤسه، وطلب إليه أنْ يستمهل قتله، ريثما يزور أهله، ولما عاد أكبر الملك فيه عزّة الوفاء وعفا عنه[(٢)]، وأنه ـ الملك ـ قُتل في معركة مع الحارث بن جبلة الغساني عام ٥٥٤، عرفت

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار سويدان بيروت مجلد ٢ ص ٦٨.

(٢) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام مكتبة الحياة بيروت ١٩٧٩ ص ٢٧٧.

بيوم حليمة، لأن الحارث الغساني أمر ابنته حليمة بأن تمسح جنوده بالطيب، وأنْ تلبسهم سلاحهم، وأعلنَ أنّ مَنْ يقتل ملك الحيرة يزوّجه ابنته، وهو اليوم الذي افتخر به الغساسنة، وقالوا في أمثالهم: «ما يوم حليمة بسر»[1].

تولى الحكم من بعده ابنه عمرو بن هند ـ نسبة إلى أمه الكندية ـ توفي عام ٥٧٨ وعُرف بلقب «مضراط الحجارة» لقوته وبأسه، ولقّبه العرب بالمحرّق لأنه ألقى قتلى تميم في النار. وقُتل كما هو معروف على يد عمرو ابن كلثوم، الذي انتفض لكرامة أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة، عندما حاولت هند ـ أم الملك ـ أنْ تحطّ من شأنها، وتستخدمها في أمورها الخاصة، وأخذ سيفاً معلقاً في السرداق، وضرب به الملك وقتله، بعد أنْ سمع صرخة والدته ليلى «واذلاه يا آل تغلب».

لكنْ بالرغم من قساوة قلبه وشراسة أخلاقه وجبروت أفعاله، فقد أضحت الحيرة في عهده مرتعاً للأدب ومحجاً للشعراء. وحفلت مجالسه بمساجلات الشعراء وإلقاء الخطب والكلمات النارية. وفد عليه الحارث بن حلّزة والمنخّل اليشكري وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد، الذي قُتل على يديه.

سار على نهجه النعمان بن المنذر ٥٨٠ ـ ٦٠٢ آخر ملوك اللخميين، المعروف بأبي قابوس، الذي احتفى بلاطه بالمقامات الأدبيّة، ورعى الشعراء المنخّل اليشكري وطرفة بن العبد، ووفد عليه النابغة الذبياني، الذي عاش في كنفه ومدحه بقصائد عديدة، ومالك بن نويرة الذي خصّه بقصيدة مدحية، صوّر خلالها تاجه المحلّى باللؤلؤ والذهب الذي كان قد ألبسه إياه كسرى فارس يقول:

لن يذهب اللؤم تاج قد حبيت به   من الزبرجد والياقوت والذهب[2]

بيْد أنّ نهاية أبي قابوس كانت على يد ملك الفرس كسرى، الذي ألقى

(١) سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٢٢١.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٢٢٥.

عليه القبض فطرحه بين أرجل الفيلة في ساباط بالمدائن، وأنه مات في سجنه عام ٦٠٢م بخانقين بمرض الطاعون، وأنّ الأخبار تضاربت عن سبب اعتقاله وقتله، فقد عزا بعض المؤرخين ذلك إلى غضب الفرس من قتل النعمان للشاعر الجاهلي عدي بن زيد المتوفى عام ٥٨٧م، الذي استخدمه كسرى كاتباً ورسولاً سياسياً إلى بلاد الروم، وجعله كاتباً في بلاد الحيرة، وعيناً له على المناذرة، والذي كان الحكم الفعلي في يده، وهدفت أفعاله إلى خدمة المصلحة الفارسية، وكانت سبباً في حبسه وقتله. وأعاد بعض الكتّاب ذلك إلى حنق كسرى عليه لرفضه مصاهرته وتزويجه إحدى النساء العربيات أو إحدى نسائه[١].

لكنّ السبب الواقعي والمنطقي هو أنّ أبا قابوس تعصّب للعرب وقدمهم في إحدى المساجلات على الفرس[٢] وأبدى رغبته في استقلالهم، في فترة لعلها بداية نواة الشعور القومي، الذي أخذ في التكوّن والظهور، والذي بدا ميل النعمان لقومه العرب واضحاً، حيث تميّزت علاقته مع سادة العرب ووجوهها بالمودة والإكرام، وكانت وفود العرب تجتمع إليه في كل عام، وتتفاخر بقبائلها وأنسابها، فيخلع على أعزّها قبيلاً حلّة، ويمنحهم الهدايا والأعطيات.

ويُروى أنّ النعمان فخر بقومه العرب أمام وفود الأمم، وفضّلهم على غيرهم ولم يستثنِ الفرس، وأنّ كسرى شعر بضعف ولاء النعمان للفرس، بعد أن فقد الثقة به، وأنّه فكّر باحتلال الحيرة وإدارتها من قبل الفرس مباشرة. وهذا ما يكشف جانباً من مخاوف الفرس من النعمان، ويبيّن البواعث الحقيقية لقتله، بدليل أنّ كسرى أوكل الحكم من بعد النعمان إلى إياس بن قبيصة الطائي، الذي لا يلتزم عصبية عربية تهدّد وجود الفرس في العراق، ولأنّ قومه طيئاً أبت أن تُجير النعمان من كسرى، والذي أمره كسرى باسترداد ودائع النعمان من بني شيبان، الذين أبوا اخفار ذمتهم، وامتنعوا عن

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك مجلد ٢ ص ٣٠.

(٢) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في العصر الجاهلي ص ٣٠٠.

رد الودائع، وأنّ كسرى اضطر إلى أن يوجه جيشاً لجباً من المرازبة والعرب لقتال قبيلة شيبان[1] وحلفائها، الذين صبّوا حميّة للنعمان، واستطاعوا أنْ يحقّقوا نصراً على الفرس، ويلحقوا هزيمة بهم في يوم ذي قار ـ الكائن على مقربة من البصرة ـ عام ٦١٠م، وهو العام الذي بُعث فيه رسول الله ﷺ، وقال «هذا يوم انتصفتْ العرب فيه من العجم، وبي نصروا»[2]، بعد أنْ أظهر المسؤولون فيها صلابة في الموقف، والتزاماً في المسؤولية، وحنكة ودراية في ضروب الحرب وخططها الفنية، وضَرّب حنظلة بن ثعلبة قبة في بطحاء ذي قار، وآلى على نفسه أنْ لا يفرّ حتّى تفرّ القبة، وقطع وضين راحلة امرأته، وتتبّع قطع بقية الظُعُن، وطلب من كل رجل أنْ يقاتل دفاعاً عن حليلته، وقام هانيء بن مسعود وألقى كلمة حماسية، فيها من الشدة والبأس ما تُرجّح كفة قومه: «إنّ الحذر لا يدفع القدر، وإنّ الصبر من أسباب الظفر، المنية لا الدنيّة، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعْن في الثغر أكرم من الطعن في الدبر، يا قوم جدّوا فما من الموت بدّ...»[3].

دلت الأحداث أنّ القبائل العربية ـ بني أياد وبني شيبان وبني عجل وبني بكر ـ شعرت بمصير العرب المهدّد في المنطقة، فثبتت في المعركة، حتى تمكنت من النصر، بعد أن فرّ الفرس وتشتت شملهم، على الرغم من كثرة عددهم وعدّتهم، وأنّ الملحوظة الهامة التي يجب تسجيلها هنا هي أنّ العرب وللمرة الأولى في التاريخ قد تجرّؤوا على لقاء الفرس في جولة مفتوحة، هي نقيض حروب الغزو والغارات، وأنهم قد حاربوا أمة غريبة عن أمتهم، جمعتهم راية العصبية، ووحّدهم شعار العروبة التي سرعان ما أضحت عنصراً رئيساً في المجتمعات الإسلامية، على الرغم من خضوع المنطقة وبلاد فارس للديانة المسيحية، وأنهم قد عرفوا ديانات ومذاهب متعددة، عبد بعضهم الأصنام كاللات والعزّى، وعبد البعض الآخر الكواكب

(١) إحسان النص: العصبية القبلية في الشعر الأموي ص ١٥٦.
(٢) عمر فروخ: تاريخ الجاهلية ص ١٤٥.
(٣) علي الجندي: شعر الحرب في العصر الجاهلي ص ٤٠.

والنجوم... وانتشرت المسيحية في كثير من المناطق العربية، وتأصلت في الرها ونصيبين واربل، وصارت الحيرة مركزاً أسقفياً عام ٤١٠م، رغم أنّ ملوكها لم يتنصّروا إلا في القرن السادس الميلادي، حين اعتنق النعمان بن المنذر المسيحية على يدي عدي بن زيد العبادي.

بيد أنه من غير المؤكد أنْ يكون المنذر بن ماء السماء نصرانياً، لأنه عُرف عنه أنه كان يقدّم الذبائح من الأسرى إلى العزّى والزهراء، لكنّ ابنته هند ـ صاحبة الدير المعروف باسمها ـ كانت مسيحية، وأنّ ابنها عمرو بن هند نشأ مسيحياً أيضاً.

ويلاحظ أنّ كثيراً من قبائل العرب التي نزلت الحيرة اعتنقت المسيحية مثل تغلب وبطون من بكر، وكان معظم النصارى فيها من أتباع المذهب النسطوري[1] الذي شجعه الفرس تحدّياً للروم، والذي كان مريدوه يؤمنون بطبيعتين للمسيح، خاصة بعد صراع النساطرة واليعاقبة وتفوّق النساطرة الذين اجتذبوا عدداً كبيراً من نصارى الحيرة إلى مذهبهم.

مملكة الغساسنة وحضارتها الأدبية والعمرانية:

بعد أن أوضحنا كيفيّة قيام الممالك العربية وأسباب تبعيّتها للدول الأجنبية، نستطيع أن نؤكد أنّ الغساسنة في فترات معيّنة، أدركوا دورهم الخطير الذي كانوا يؤدّونه حيال الروم، والخدمات الكبيرة التي كانوا يقومون بها، فتحينوا الفرصة السانحة والظروف المؤاتية لإرغام الروم على رفع جعالاتهم وزيادة امتيازاتهم، بعد أن أضربوا عن الحراسة وأثاروا الأعراب.

ولعلني لا أجانب الحقيقة إذا قلت، انه حدث مثل هذا الخلاف أكثر من مرة، وجرى تجاف بين أمراء الغساسنة والروم، فانسحب الغساسنة إلى الصحراء وامتنعوا بها، وأجبروا الروم على توكيل حراسة حدودهم إلى بطارقتها الأشدّاء، الذين تعقّبوا الغساسنة والأعراب، وأنزلوا الضربات بهم.

---

(١) نسبة لنسطوريوس الذي وجد في المسيح شخصياً إلهياً وشخصاً بشرياً، يتصل واحدهما بالآخر بانسجام تام في العمل.

فاضطرب حبل الأمن وقام الغساسنة والأعراب بغارات على المناطق الروحية، وسنحت الفرصة لأمراء الحيرة ليشنوا هجمات قوية على بلاد الشام، وينزلوا ضربات موجعة بالروم، الذين اضطروا إلى استرضاء الغساسنة والاستجابة لمطالبهم.

تباينت الأخبار حول تأريخ نشأة مملكة الغساسنة وعدد ملوكها. فذهب بعضهم إلى أن عرب اليمن أنشأوها بعد ظهور المسيح بزمن قليل، ودام سلطانها نحو خمسمائة سنة، واشتملت على ستين مدينة محصّنة، وادعى بعض الكتّاب أنها أنشئت في القرن الأول للميلاد، ودامت حتى ظهور الإسلام، وقد تجاوز عدد ملوكها الثلاثين، وادعى آخرون أنّ سيادة هذه الدولة لم تتجاوز القرن ونصف القرن، وأنّ أقدم ملوكها عاش في القرن الخامس ميلادي، وأنّ آخرهم عاصر ظهور الإسلام، وأنّ حكمها زاد على أحد عشر ملكاً[1].

وعُرف الغساسنة بروم العرب، لأنّ الروم أقاموهم حاجزاً أمام بدو العرب وغزواتهم على المناطق المتحضرة، وشكّلوا الخط الدفاعي الأوّل لإقليم الشام ضد البدو والفرس، الذين كانوا يتحيّنون الفرص للانقضاض على الشام والاستيلاء عليها. ولا يُعرف بشكل وافٍ عن هذه الأسرة سوى تاريخ الملوك الخمسة الأخيرين في القرن الذي سبق الإسلام.

وكان أشهر ملوك هذه الأسرة الحارث الخامس الذي جعله يوستنيانوس بطريقاً أي قائداً، وأنعم عليه بالتاج عام ٥٢٩م، ومنحه السلطة المطلقة على عرب شمال سورية[2].

كانت ديار هذه المملكة ما بين الجولان واليرموك، في مكان على نهر بردى، عُرف باسم جلق، وجاءت أقوال الكتّاب متضاربة حول حاضرة الغساسنة وعاصمتها، فأعادها بعضهم إلى الجابية في منطقة الجولان،

---

(١) عبد اللطيف الطيباوي: محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، دار الأندلس ط ثانية ١٩٧٩ ص ١٨١.

(٢) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٣.

وجعلها البعض الآخر في جلّق قرب دمشق.

ويعود عرب الغساسنة في رأي النسابين إلى أصل يمني من قبيلة مازن من بني جفنة ـ إحدى قبائل الأزد الكبيرة ـ التي ينتسب إليها المناذرة. هاجروا بقيادة جفنة ابن عمرو مزيقيا[1] إلى الشام بعد اضطراب أحوال بلادهم، واستقروا حول نبع ماء عُرف بغسان، فنسبوا إليه. ويقال انّ أهلها نزحوا إلى الشمال مع قبائل أخرى ـ جذام وقضاعة وكلب[2] واصطدموا بعرب بني سليح ـ من قبائل قضاعة ـ التي يُعرف رؤساؤها باسم الضجاعمة، وحلوا مكانهم على المنطقة في ظل السيادة الرومانية، وبالتالي بعد أن تغلبوا على بني سليح واعترفت الدولة البيزنطية بهم، ووضعتهم تحت حمايتها، واتخذتهم أعواناً لها ضد المناذرة والفرس.

ويُعتقد أنّ دولة الغساسنة كانت في بدء أمرها بدويّة وموغلة في البداوة. انتقل أهلها من مكان إلى آخر، فنزلوا أولاً في جابية الجولان وأقاموا في جلّق حوران. ثم قطنوا بصرى ـ جنوبي دمشق ـ، ونسب إليهم تشييد القصور وبناء دور العبادة.

وقد تحفّظ نولدكه في أن يكون عرو بن جفنة الغساني بنى أديرة الشام، كدير أيوب مثلاً، لأنه يشك في نصرانيته، أو يكون قد أقام قناطر فرعون، ويستبعد قيام الغساسنة بمثل هذه المنجزات، ويذكر أنه لم يصلنا أية معلومات تفيد بأنّ الغساسنة قد أسسوا أماكن محصّنة أو مدناً خصّصت للجيش.

وذكرت بعض الدراسات أنّ حضارة الغساسنة ظهرت من خلال حلّ الكتابات الحميرية المنقوشة على جدران مبانيها، القريبة من عاصمتها القديمة بصرى، ومن آثار قنواتها التي تشهد بما كان عند سكانها من قدرة على القيام بالأعمال الفنية، وتمكنهم من نقل ألوان من تراث حضارة الروم واليونان إلى

---

(١) يسمّى مزيقيا لأنه كان يمزق حلّتين كل يوم، وقيل لأن الأزد تمزّقت على عهده أثناء هروبهم من سيل العرم، وأنه لا يُعرف تاريخه وأن تاريخ السلالة الجفنية غامض.

(٢) شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف مصر ص ٤٠.

العرب، ونقل ما عُرف عن بقية الشعوب التي نزلت أمبراطورية الفرس والروم.

مهما يكن الأمر، فإنّ بلاد الشام عرفت تقدّماً وازدهاراً عمرانياً في عهد بعض ملوكها، الذين رفعوا أبنية وقصوراً، كقصر المشتى الذي يعتبر حسب بعض المراجع من طبع العمارة الغسانية، والذي اعتبرته مصادر أخرى متأثراً بالفن الساساني الذي عرفته الحيرة، وأنشأوا قناطر وأبراجاً، وعمّروا عدداً من القرى، التي أحصى حسان بن ثابت منها ثلاثين[١]. واستغلوا مياه حوران في زراعة الأرض وتطور محصولاتها.

وقد نستدل على مظاهر حضارة الغساسنة وآثارها في الشام، من خلال توافد الشعراء أمثال النابغة الذبياني والأعشى وعلقمة الفحل وحسان بن ثابت على ملوكها، الذين خصّوهم بأعطياتهم عندما وصفوا معالم حياتها وعظمة تراثها، وتحدثوا عن مظاهر الترف، التي لفّت بلاطهم، وتكلموا على حللهم المضاعفة النسج، المصنوعة من الخز الأصفر ـ الاضريح ـ، وذكروا طرب القيان والشراب المقدّم في صحاف الفضة والذهب، وأشاروا إلى الأجواء التي تعبق بالرياحين والعنبر والمسك[٢].

يذكر أنّ علقمة رحل إلى بني غسان بعد معركة حليمة، التي أسر فيها مائة من بني تميم، وفيهم شقيق الشاعر شأس، ومدح الملك بقصيدة راجياً منه أن يفك أسر شقيقه وجميع أسرى تميم، ويُروى أن حسان بن ثابت ادعى صلة النسب والقربى معهم، وأنه لازمهم وأصبح شاعرهم في الجاهلية. ويُقال انه دخل يوماً على الملك الغساني عمرو بن الحارث فوجد عنده النابغة وعلقمة الفحل، وأنه ألقى قصيدة مدْح تفوّق فيها على قول الشاعرين، وجعل أسارير الملك تنبسط ويقول والله هذا هو الشعر[٣].

ويذكر أنه سمع قينة اسمها رائقة في مأدبة فقال: «لقد أذكرتني أمراً ما سمعته أذناي بعد ليالي جاهليتنا مع جبلة بن الأيهم ـ آخر ملوك غسان ـ،

---

(١) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في العصر الجاهلي ص ٢٤٠.

(٢) شوقي ضيف: العصر الجاهلي ص ٤٣.

(٣) عبد الطيف الطيباوي: محاضرات في تاريخ العرب والإسلام ص ١٨٩.

الذي عُرف عن مجلسه أنه كان غاية في الفخامة والبذخ، وأنه إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين، وأصناف الرياحين، وضُرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب...[1].

وقد انحاز جبلة إلى صفوف العرب، واعتنق الإسلام بعد هزيمة هرقل وقواته في معركة مع خالد بن الوليد عام ٦٣٦ قرب دومة الجندل، وأحسن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نزله في المدينة، وأحله برتبة أعلى المجاهدين، وانضم إلى جيوش المسلمين، الذين اندفعوا خارج الجزيرة يضربون عروش الأكاسرة والقياصرة، ويقيمون صرح دولتهم الجديدة.

ويقال ان جبلة عندما اعتنق الإسلام دخل مع حاشيته إلى المدينة بموكب حافل، وهو يضع على رأسه تاج أجداده، الذي تزينه لؤلؤتان كانتا قرطين لأم الحارث بن جبلة، يبلغ حجم الواحدة منهما بيضة الحمامة.

لكنّ جبلة ـ حسب بعض المصادر ـ ما لبث أن ارتدّ عندما تذمّر من موقف عمر بن الخطاب، الذي أراد الاقتصاص منه، لاعتدائه بالضرب على أحد المسلمين، واعترض عليه بقوله كيف تسوّي بيننا وأنا ملك وهو من السوقة، ثم ارتد وخرج ليلاً من مكة فاراً إلى بلاد الروم، وظلّ عند قيصرها حتى مات عام ٦٤١م. وقد ذكرت أخبار ملفقة حول إسلامه وارتداده لا تخلو من المبالغة والتضخيم[2].

وتُعتبر فترة الملك الحارث بن جبلة وابنه المنذر من أزهى أيام الغساسنة، ازدهرت المملكة أثناء حكمهما، وشهدت نهضة عمرانية، دلت عليها أطلال القصور والمسارح والكنائس، التي تمثّلت بالرسوم المكتشفة والآثار الباقية.

ويُروى أنّ المنذر بنى صهاريج لإيصال المياه إلى مدينة الرصافة، وشيّد قصراً وُجد اسمه مدوّنا على بعض حجارته، عُدّ من أعظم قصور بني

---

(١) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة بيروت ١٩٨٢ مجلد ١ ص ٤٥١.
(٢) مصطفى الشكعة: الأدب في موكب الحضارة ص ٤٠.

غسان، وساهم في بنائه أخصائيون وفنيون في بلاد الروم، وأنه ساهم في تأييد المذهب اليعقوبي على نهج أبيه الحارث، الذي وطّد أركانه وتوسط لدى القسطنطينية، وأقنع المسؤولين فيها بتعيين يعقوب البرادعي أسقفاً عاماً في الأراضي العربية الشامية، بعد أن عيّنه الأمبراطور يوستنيانوس سيّداً على قبائل العرب في سورية وجعله بطريقاً ومنحه التاج.

دافع الحارث عن مذهبه اليعقوبي وقاتل في سبيل نصرته حتى آخر أيام حياته، وسار ابنه على نهج أبيه، وعقد مجمعاً في عاصمة الروم لمناصرته، بعد أن باءت مساعيه بفشل التوفيق بين الديانتين النسطورية واليعقوبية[1]، التي يُعتقد أنّ الغساسنة قد اعتنقوا مذهبها، وآمنوا بالمذهب المونوفيزي القائل بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح، لأنهم اعتبروا أنّ المظهر البشري والإلهي في المسيح يشكّل طبيعة مركبة واحدة. وقد انتشر هذا المذهب في سورية وأرمينية ومصر، ولا يزال الأرمن والأقباط يتمسكون بلاهوت الطبيعة الواحدة، في حين أنّ أتباعه في كل من سورية وبلاد ما بين النهرين أخذ بالتناقص، منذ أن أصبح الإسلام القوة المسيطرة في البلاد، وأنّ طائفة اليعاقبة كلها أصبحت تعرف باسمه. علماً أنّ هناك أقوالاً شكّكت في نصرانيتهم، وارتابت في ديانتهم اليعقوبية، وادعت أنّ اعتناق الغساسنة للمسيحية جاء من باب مسايرة الروم، مستندة إلى طبيعة البدوي، الذي لم يكن يحفل كثيراً بالدين، ولا يفرق بين النصرانية الجديدة والوثنية القديمة، نظراً لغلظة قلبه وقساوة طبعه وكثرة أصنامه.

اعتورت حضارة الغساسنة لمسات من التضخيم والمبالغة، لكنها ولا شك تدل على حالة اقتصادية مزدهرة، وعلى أن الغساسنة اتقنوا الفنون الضرورية للاستفادة من حياة الأمطار واستثمار الينابيع الجوفية. وتشهد على ذلك بقايا ما يقرب من ثلاثمائة مدينة وقرية على المنحدرات الشرقية والجنوبية لحوران[2].

---

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ط ثالثة ١٩٨٠ جـ ٣ ص ٤١٤.

(٢) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ ١ ص ٤٥١.

بيد أنّ هذه الحضارة ومظاهرها الأدبية والعمرانية دفعت بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأنّ الغساسنة أرقى عقلية من مناذرة الحيرة وأعظم تمدناً، لصلتهم الوثيقة بالثقافتين الرومانية واليونانية، ولطبيعة البادية التي تسم حياة اللخميين وتؤثر فيهم. وقد نتحفظ إزاء هذا الكلام، لعلمنا أنّ أهل الحيرة تأثروا بحضارة ما بين النهرين، وكانوا أكثر استقراراً من أهل غسان الذين ذكرت بعض الدراسات أنّ مملكتهم كانت عسكرية.

مملكة كندة ومعالمها الحضارية:

إذا كانت النقوش المستخرجة لم تكشف عن مكان إمارة كندة، فقد ذكرت روايات الإخباريين أنّ الموطن الأصلي لأهلها هو بلاد اليمن قرب حضرموت، وأنّ صراعهم مع أبنائها ـ أي حضرموت ـ الذين تفوّقوا عليهم وهزموهم، اضطرهم إلى الجلاء عن البلاد والهجرة إلى نجد ـ أرض العدنانيين ـ وأقاموا فيها ملكاً.

وبالرغم من الخلاف حول أصل أهل كندة ونسبتهم، سواء إلى القحطانيين أو العدنانيين، فإننا نرجّح أنهم قحطانيون وأنّ ملوكهم كانوا عمالاً لملوك دولة اليمن الحميرية، وأنّ تاريخ قيام مملكتهم في الحجاز يرتبط بملك الدولة الحميرية حسّان بن تبّع الذي غزا بلاد العرب، وولى أخاه من أمه حجراً بن عمرو الكندي[1] ملكاً على كندة، وحاكماً على بعض القبائل العربية، والذي رغب من خلال ولاية أخيه في أن يضع قدمه في المنطقة، ويحقق مكاسبه السياسية ويضمن الحصول على منطقة نفوذ ودور في الصراع الفارسي البيزنطي، الذي طال بشكل أو بآخر منطقة اليمن، ومسّ مصالحها الاقتصادية والتجارية، بدليل حروب الحميريين مع كل من الغساسنة والمناذرة، وسيطرتهم في إحدى المواقع على أرض بكر بن وائل التي كانت تخضع لسيطرة اللخميين.

ويبدو أنّ أوّل منْ أقام صرح المملكة الكندية هو الملك حجر بن

---

(١) يُقال ان حجراً قريب حسان أو وضيعه أو من المخلصين له.

الحارث بن عمرو مؤسس إمارة كندة الحقيقي عام ٤٨٠م[١]، الذي بزّ غيره من الأمراء السابقين قوة وسلطاناً، وامتدت سلطته إلى حدود اليمن وأطراف الشام والعراق[٢]، وعُرف بآكل المرار[٣]، لأنه أكله ولم يحس به لغضبه. لكنّ استيلاءه على بلاد الحيرة سرعان ما قصّر من عمر مملكته، التي دبّ فيها التفكك والضعف، وأدى إلى نهايتها، بعد أن نجح ملك الحيرة المنذر الثالث من استعادتها عام ٥٢٩م وأعدم الحارث بن عمرو وتخلص من حكم بني كندة.

وهكذا انفرط عقد ملوك كندة وعادوا إلى موطنهم الأصلي في اليمن، وانتهى أمر هذه المملكة بعد مقتل آخر ملوكها حجر ـ والد الشاعر امرىء القيس ـ الذي فشل في محاولة إعادة بناء المملكة، وفي طلب مساعدة الأمبراطور البيزنطي، لأن لعبته كانت أكبر منه ومن طموحه، فهلك في أرض الروم ودُفن في أنقرة، وحلّت دولة المناذرة في السيطرة على القبائل البدوية مكان كندة، التي يُقال انّ سقوطها أدّى إلى تفكيك عرى الوحدة القبلية في الجزيرة، وإلى استقلال كل منها بتدبير أمورها الداخلية وشؤونها القبلية، حتى جاء الإسلام فوحّد هذه القبائل وصهرها في أمة واحدة.

بيْد أنّ طبيعة كندة وعادات أهلها البدوية لم تؤهلها لقيام حضارة زاهرة مثيلة بحضارة المناذرة والغساسنة. وبالأحرى لم يُعرف عن أهلها أنهم اهتموا ببناء المدن والقصور، لأنهم أشبه بالبدو قد حافظوا على نظم الحياة البدوية وانتقلوا بين الشمال والجنوب، وأقاموا في الخيام وقضوا أوقاتهم في الحرب والصيد.

أما بالنسبة لمعتقداتهم الدينية فقد عرفوا الديانات السماوية والوضعية. كان بعضهم وثنيين يعبدون الأصنام، كذي الخلصة الذي انتقلت عبادته لاحقاً إلى الحجاز، واعتنق بعضهم الآخر اليهودية بسبب اتصال الكنديين باليمنيين

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٢٣٣.
(٢) سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام، دار الفكر بيروت ١٩٧٩ ص ٢٨.
(٣) المرار: نبات شديد الحرارة.

التّبابعة، وبسبب مجاورة اليهود لبني كنانة في يثرب وخيبر، ودان قسم بالمسيحية التي انتقلت إليهم عن طريق غساسنة الشام وأحباش اليمن، وانتشرت بكثرة في بلاد نجد.

وهكذا يتبيّن أنّ الممالك العربية التي عرفتها الأقاليم الواقعة على أطراف الجزيرة العربية كانت في معظمها من أعمال عرب اليمن الجنوبية، الذين استفادوا من معرفتهم شعوب المنطقة وأممها، فأقاموا حضارة لا تزال البشرية تدرس معالمها، وتستفيد منها في إغناء الحضارة الإنسانية.

الفصل السادس

المرأة في المجتمع الجاهلي

أ - ظاهرة الوأد وأبعادها الاجتماعية

ب - الزواج وأنواعه في مجتمع الجاهلية

المرأة في المجتمع الجاهلي

يتطلّب الحديث عن المرأة العربية في الجاهلية وعلاقتها بالرجل ثقافة واسعة، وفكراً منهجياً شاملاً، يستوعب سيرتها الذاتية الطويلة التي عاشتها عبر عصور وأزمنة مختلفة، تبوّأت في مراحل متقدمة من حياة مجتمعاتها الشرقية منزلة إنسانية عالية، قُدّمت إليها القرابين وأُقيمت في أعيادها احتفالات رائعة، ونُسب إليها الأطفال، وسُمّيت الآلهة باسمها.

لكنها عاشت في مراحل لاحقة حالات صعبة، أمست مكانتها ثانوية، اقتصرت على خدمة البيت وترتيب شؤونه، واغتُصبت حقوقها، ومُرّغ وجهها في الوحل، وبالأحرى ذاقت عند بعض قبائل العرب في العصر الجاهلي ألواناً من العبودية والذل، بعد أن سلب الرجل امتيازاتها، واستولى على مكتسباتها وجعلها منبوذة مستعبدة، واعتبرها شيطانة يُستعاذ منها، وآفة أفسدت آدم وحملته على الأكل من الشجرة الملعونة، وأصبح الرجل هو القائم بأمر الأسرة والمسؤول عن شرف الحياة فيها، وحمايتها من الأذية والاعتداء.

وقد أفادت الدراسات الحديثة أنّ المرأة العربية الحرة والصريحة تمتّعت بمركز هام في كثير من القبائل المتبدّية والمتحضرة، ونالت حقوقها ومارست حريتها ولعبت دوراً مميزاً في مجتمعها. إذ ساوت الرجل في قضايا الحياة وأمورها المدنية، ولم تكن عالة عليه أو ألعوبة بين يديه يفعل بها ما يشاء. بل شقّت طريقها وتمكنت مثلاً من اختيار الزوج بنفسها، دون حياء أو خجل، ولا تزال قصة هند بنت عتبة ماثلة أمام أعيننا حين قالت لأبيها: «إني

امرأة قد ملكتُ أمري فلا تزوجني رجلاً حتى تعرضه عليّ»[١]. وكانت تدلي برأيها فيمن يتقدّم لخطبتها، فإنْ وافق هواها قبلته، وإلاّ ردّته وازورّت عنه[٢].

من هنا وحتى لا نُتّهم بالتطرف والمبالغة في اتخاذ المواقف الإيجابية بحق المرأة، نرى لزوم الإشارة إلى أننا نبغي الحقيقة المجرّدة والموضوعية التي ضُيّعت وسط التفاسير الخاطئة والنيات السيئة والأغراض الضيقة، ونتطلع بصدق وأمانة إلى إنصاف سمعة المرأة الجاهلية، وتصحيح ما اعتور حياتها من تدليس وأراجيف ملفّقة، بدليل أنّ أمثلتنا تنبع من التاريخ الجاهلي نفسه ومصادره الأدبية والتاريخية.

فمثلاً ألم تكن المرأة كاهنة عند عرب قبيلة بني الأزد؟ وألم تكن المرأة نفسها مستشارة عمرو بن مزيقيا، ومتنبئة بني حنيفة؟ وألم تتبوّأ سلطة البلاد مثل الملكة الزباء، وتشارك الرجل في صنع القرار السياسي؟ وألم تملك أموالاً طائلة مثل والدة حاتم الطائي وتحوذ الشرف الرفيع؟

فضلاً عن ذلك عُرف عنها أنها داوت الجرحى، وكفكفت دموع الثكالى والمفجوعين، وتنقّلت وسط صهيل الخيول ومعمعة السيوف حاملة قراب الماء والزاد[٣]، وحضّت قومها على الصبر في المحن، والصمود أمام الصعاب، واستثارت عزّتهم العربية ونخوتهم القبلية في المواقف القتالية الحرجة، ومنعتهم من أن يلوذوا بالفرار، خوفاً من أن يشوهوا سمعة قبيلتهم، ويصموا أبناءهم بالعار، وحثّت الفرسان على الثبات في المعركة وهي تطلب الشهادة أو النصر، وأثارت الحمية في صدورهم وهي تنشد:

نحن بنات طارق ... نمشي على النمارق
إن تقبلوا نعانق ... أو تدبروا نفارق[٤]

---

(١) حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف مصر ١٩٧٠ ص ٥٢.
(٢) الأصفهاني: الأغاني جـ ١٠ ص ٢٢.
(٣) بطرس البستاني: أدباء العرب ص ٢٥.
(٤) عمر أبو النصر: قصة العرب قبل الإسلام ١٩٧٠ ص ١٨٥.

إذا كانت المرأة الحرة والشريفة النسب احتلّت هذه المكانة واستطاعت أن تلعب دوراً بارزاً في المجتمع الجاهلي، فإنّ المرأة العادية على العموم لم تحظ بعناية المجتمع ورعايته، وجعلها عرضة لانتقادات الكتّاب ـ العرب والأجانب ـ جاء أكثرها ضعيفاً ومشبوهاً، فصُوّرت مثلاً عنصراً تافهاً ومنحطاً ومتخلفاً. اقتصر دورها الرئيسي على إنجاب الأقوياء الذين يحافظون على شرفهم، ويذودون عن حياض قبيلتهم، ويفتخرون بأن يكللوا رأسها بالغار والمجد.

والواقع أنّ تصوير المرأة في الجاهلية بأنها متخلفة وذليلة يهدف إلى نعت المجتمع العربي برمته بالانحطاط والهمجية، لأنّ مثل هذه الكتابات لم تتطرق إلى وصف المرأة في المجتمعات الغربية القديمة والحديثة، ولم تتحدث عن التشريعات المعاصرة في كل من فرنسا وانكلترا التي لم تنصفها ولم تعطها حقوقها المدنية إلاّ في العقود الأخيرة من هذا القرن.

علماً أنّ حالة المرأة الأجنبية في المجتمعات الغربية لم تكن أفضل حالاً من أختها العربية. بل على العكس فقد عرفت في ظل المجتمع اليوناني أحقر أنواع المهانة والمذلة، عدّها أبناؤه رجساً من عمل الشيطان ومن المخلوقات المنحطّة، التي تنفع لدوام النسل وتدبير شؤون المنزل، وكانت تُباع وتُشترى كسلعة تجارية. وجرّدها المجتمع الروماني من أبسط حقوقها المدنية، حتى حقها في العيش، لأنّ المرأة التي لا تضع ولداً قوياً يصلح للجندية تُقتل، وأنّ المرأة الولود تؤخذ من زوجها لتلد للوطن أولاداً من رجل آخر[١].

ويلاحظ أنّ معظم المشترعين الغربيين أبدوا مثل هذه القساوة على المرأة، وأنّ الموت والجحيم والسمّ والأفاعي في شرائع الهندوس ليست أسوأ من المرأة، التي خضعت عند اليونان والرومان لسلطة الرجل وسلطانه. فقد كان سلطان الرجل في رومة على زوجته مطلقاً، لأنها أمة لا قيمة لها في المجتمع، ولزوجها حق حياتها وموتها. وأنّ الشريعة اليونانية لم تعامل

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٤٩٢.

المرأة بأحسن من ذلك، فهي لم تعترف لها بحق الميراث ولا بأي حق آخر[1]، وأنّ التوراة التلمودية لم تكن أرحم بالمرأة.

ففي سفر الجامعة أُلصقت بها نعوت قاسية لا مثيل لها في قوانين الدول ودساتير الأديان، فهي أمرّ من الموت لأنها فخ وقلبها شبكة ويداها قيود. مَنْ كان صالحاً ينجو منها، ومَنْ كان خاطئاً يعلق بها[2]. وأنّ أمثلة مختلف الأمم ليست أكثر اعتدالاً، فالمثل الصيني يقول: «انصت لزوجتك ولا تصدقها»، والمثل الروسي يقول: «لا تجد في كل عشر نسوة غير روح واحدة»، والمثل البريطاني يقول: «المهماز للفرس الجواد والفرس الجموح والعصا للمرأة الصالحة والمرأة الطالحة»، وأخيراً المثل الأسباني يقول: «احذر المرأة الفاسدة ولا تركن إلى المرأة الفاضلة»[3].

إذا كنا نفهم إيثار البدوي لعنصر الذكور، ونُدرك انعكاساته في نظام القبيلة، الذي يقوم على مبدأ القوة لضراوة الحياة وقساوة العيش، فإننا لا نستطيع أن نستسيغ فكرة التمايز بين الجنسين في مجتمع القرن العشرين، الذي ما زال يعتبر المرأة في منزلة أدنى من الرجل، والذي صنّف المرأة في مستوى الرجل لفظياً، وأعطاها حقوقها كاملة من خلال الخطب الطنانة والمقالات الفارغة، التي لا تعرف طريقاً إلى الممارسة الفعلية والتطبيق العملي.

بيد أنّ المرأة في الجاهلية لقيت عطفاً من قبل الرجل، واستحساناً في تصرفاته، وتفهماً لوضعها الوظيفي والاجتماعي، وأنّ العصر الجاهلي عرف العديد من الأدباء العرب، الذين استأنسوا بالبنت ودلّلوها. يُروى أنّ معن بن أوس كان مئناثاً، له ثلاث بنات يؤثرهن ويحسن صحبتهن، وكان يرى أنّ البنت أكثر حنواً ووفاءً على الآباء من الصبيان[4]، وأنّ لبيد العامري الشاعر المعروف قد أشفق على ابنتيه من أن تحزنا عليه بعد موته، وتخمشا الوجه

(١) الكتاب المقدس ص ١٣٧٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٩٤.

(٣) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٤٩٢.

(٤) عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب ص ٦١٢.

وتحلقا الشعر، فنصحهما بعدم التمادي في الحزن والإفراط في اللوعة، والتفكير بقيمة الحياة ومتعتها الدنيوية، وأنّ بعض العرب اعتزازاً بالبنت واحتراماً لها ولموقعها الحياتي، آثر التكنّي بأسماء بناته. فكان جد زهير بن أبي سلمى يكنّى بأبي سلمى، وكان النابغة الذبياني يكنّى بأبي أمامة. وكان الملوك أنفسهم ينتسبون إلى أمهاتهم، مثل منذر بن ماء السماء ملك الحيرة، الذي عُرف بماء السماء وهو لقب أمه مارية بنت عوف، وعمرو بن المنذر الذي عُرف بعمرو بن هند نسبة إلى أمه هند بنت عمر بن حجر.

هذا ما يمكن استخلاصه من الدراسات المنصفة والكتابات الأدبية التي أظهرت صورة المرأة بأوجهها المتباينة وحياتها المختلفة. وهذا ما سنعالجه في دراسة وأد البنت والأبعاد الحقيقية لهذه الظاهرة.

ظاهرة الوأد وأبعادها:

إنّ الحديث عن وأد البنت وقتل الطفلة في مهدها يستفزّ في النفس التقزّز والنفور، وانّ صورة الوالد وهو يدسّ وجه طفلته في التراب ويمرغه بهدف طمره، تدعو إلى الاشمئزاز وإثارة المشاعر الإنسانية والعواطف النبيلة.

ونحن لا نستطيع إلاّ أن نتبيّن الموقف الإنساني، ونقف مع تطلعات المجتمع المتمدن الذي يُعلي من قيمة المرء ويسمو به خلقياً واجتماعياً، ونرثي في الوقت نفسه للحياة المهانة والأعمال المخيفة التي تسيطر على الحياة وتسحق الصوان والحجر، ونرفض ظاهرة الوأد ولا نتقبّل إطلاقاً هذه الجريمة ولا نؤيدها.

لكننا لا نريد تضخيم الأمور، والمبالغة في طرح المشكلة، بهدف النيل من العربي والحط من سمعته، واتهامه بصفات البربرية وسمات العبودية، التي كما بيّنّا آنفاً لم يتقبلها إطلاقاً لأنها تتعارض مع وجوده الحياتي ومنطلقاته الأدبية، وتتناقض مع أعرافه الموروثة وتقاليده المتأصلة عبر مختلف الأزمنة، لاسيما بعد أن كشفت الدراسات الحديثة عن خصوصيّه الوأد وأظهرتْ أنّ هذه الفعلة لم تكن عامة، تشمل مختلف القبائل، وأنها انحصرت عند قلّة من

أفراد القبائل الفقيرة، الذين غلّبوا لغة الأمر الواقع على العواطف الإنسانية، والذين تملصوا من المداخلات المانعة والمحاولات الرادعة.

أكدت الدراسات أنّ وسائل عدّة اتبعت للحيلولة دون وأد البنت، فيُذكر أنّ الفرزدق افتخر بجدّه صعصعة ـ محيي الموءودات ـ لأنه أحيا أكثر من عشرين موءودة، وأنّ الشفقة كثيراً ما كانت تتغلب على قلب الوالد فيعمد إلى إخفاء البنت عن الناس، خوفاً من أن يعلم بها أحد، ويقول لامرأته: استرضعيها واخفيها عن الناس[1]. وأنّ بعض سادات القوم ووجهائهم كانوا يبذلون مالهم، ويستوهبون حياتها مقابل عدد من البعير والنياق، ليحولوا دون وأد البنات.

فيروى أنّ زيداً بن عمرو بن نُفيل القرشي كان يضرب بين مساكن القوم، فإذا لاح له رجل يهمّ بوأد ابنته قال له: «لا تقتلها، أكفيك مؤونتها» ويأخذها ويتولى أمرها، حتى إذا شبّت يخيّر والدها في ردّها أو إبقائها عنده[2]. وإنّ بعض العرب يتردّد قبل أن يقدم على قتل ابنته، وكثيراً ما تنقلب عاطفته ويمتنع عن تنفيذ مهمته. وهذا ما نقل عن عدي بن ربيعة المعروف بالمهلهل ـ زير النساء ـ عندما وُلدت له ابنته ليلى، وأمر بدفنها، لكنه بدا له أمور غيّرت رأيه فاستحياها وأبقى على حياتها.

بعد هذه اللمحة الموجزة عن كيفية تعاطي الجاهلي مع عملية الوأد، نستطيع أن نتبيّن الأسباب الرئيسة التي دفعت العربي في الجاهلية إلى وأد ابنته والتخلص منها، ونؤكد وجوب وضع ظاهرة الوأد في سياقها التاريخي، رغم اعترافنا بفظاعة الحدث، وعدم تقبلنا لهذه الفعلة النكراء، حتى لا تستغلّ من قبل الحاقدين، وتؤول لمصلحة المغرضين الذين ينتهزون السقطات ويجيّرون هنات المجتمع لمصالح سياسية.

أكدت الأحداث أنّ عملية الوأد أتت في سياق الخوف من الفقر

---

(١) عمر أبو النصر: قصة العرب قبل الإسلام ص ١٦٦.

(٢) عمر رضا كحالة: المرأة في عالمي العرب والإسلام جـ ١ ص ١٠.

والعار، وما يلحقه من سبي يسيء إلى أدب البنت، ويبذل في عرضها ويهتك سترها، وبيّنت حالة الذعر من تبدّل الأحوال المادية، وما يسبّبه الفقر من ذل النفس وهدر الكرامة، وأنها تعود أيضاً إلى صفات في الموءودة نفسية واجتماعية، كأن يتشاءم أهلها منها إنْ كانت زرقاء أو شيماء أو كسحاء أو برشاء[1]، أو ترجع إلى أسباب دينية كأن يتقرب بها إلى الآلهة ويشكر الله على نعمته، كمثل الفراعنة حين كانوا يختارون في كل عام فتاة جميلة، يرمونها في النيل تقرباً للآلهة[2]، أو تعود إلى عوامل اجتماعية وصحية كأن تخلق ضعيفة أو مشوّهة، أو أن تُصاب بمرض لا شفاء منه.

ويبدو أنّ أوّل منْ أقدم على عملية الوأد هو قيس بن عاصم، وأنّ السبب يعود إلى رفض ابنة أخ قيس المذكور العودة إلى أهلها، بعد أن سباها النعمان بن المنذر في غزوة له على بني تميم، وفضلت البقاء عند صاحبها عمرو بن المشرج اليشكري الذي اصطفاها لنفسه[3].

ويُقال إنّ قيساً بعدها وأد بيده بضع عشرة ابنة له من قبل أن تقتدي به العرب[4]، وينتشر الوأد عند قبائل العرب، ويصبح إرثاً ثقيلاً تتناقل أفعاله المشينة الأقلام المغرضة، وعبئاً خطيراً يشوّه سمعة الإنسان العربي، ويهبط من سموّه وعليائه، خاصة وأنّ المصطادين في مياهه العكرة ابتعدوا عن البحث العلمي والأمانة التاريخية وشوّهوا الحقيقة، عندما جعلوا عملية الوأد عامة عند مختلف بلدان العرب وفئاتها الاجتماعية، لأنها انحصرت عند قلّة من قبائل عرب تميم وربيعة وكندة في فترة زمنية ضيقة، أتى بعدها الإسلام ليمنع الوأد، ويقضي على مسبّباته. ولتأكيد وجهة نظرنا نسوغ بعض المعطيات المنطقية التي تدحض الافتراءات الواهية:

أولاً: إنّ قيس بن عاصم أدرك الإسلام وعمّر معه سنين طويلة، وانّ

---

(١) عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب ص ٦١٧.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٥ ص ٣٠٢.

(٣) عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب ص ٦١٥.

(٤) حسن الحاج حسن: حضارة العرب في العصر الجاهلي ص ٢٦.

الوأد لم يستمر طويلاً لأنّ مدّته الزمنية كانت قليلة ومحصورة بعقود إنْ لم نقل بسنين محدّدة.

ثانياً: إنّ الشعر الجاهلي المعروف بديوان العرب الذي سجّل حياة عرب الجاهلية بوجوهها كافة الاجتماعية والسياسية، قد خلا من كلمة الوأد، ومن كل ما يتعلق بهذه الحادثة.

ثالثاً: إنّ القرآن الكريم لم يذكر الوأد بشكل صريح ومباشر إلاّ مرّة واحدة **﴿وإذا الموؤدة سئلت * بأي ذنب قتلت﴾**[1]، وأنه صوّر موقف الجاهليين من الأنثى بقوله تعالى: **﴿وإذا بشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب﴾**[2].

مهما كان الأمر تبقى عملية الوأد حقيقة مُرّة، انتزعت رحمة الحياة من قلب بعض الآباء، وحرمتهم من درّة الوجود ومتعته. وخير ما نتمثل به هذا الموقف هو محاورة محمد ﷺ ورئيس قبيلة بني تميم الذي قال عندما رأى الرسول الكريم يضع إحدى بناته على ركبتيه، مَنْ هي الشاة التي تشمّها، فأجابه محمد ﷺ هي ابنتي، قال قيس والله كان لي عدة بنات وأدتهن من غير أن أشمّ واحدة منهن، قال محمد ﷺ صارخاً: «ويل لك يظهر أنّ الله قد نزع من قلبك كلّ رحمة، فلا تعرف أطيب النعم، التي منّ الله على الإنسان بأن يتمتع بها»[3].

الزواج وأنواعه في مجتمع الجاهلية:

توافقت معظم الدراسات الحديثة والقديمة على وظيفة المرأة الرئيسة في الحياة، وبيّنت أنّ دورها الهام هو في تربية الأولاد والاهتمام بشؤون العائلة، والمسؤولية التامة بالنهضة البيئية والتقدم المجتمعي، وإعداد جيل

---

(١) سورة التكوير، آية ٨ و٩.

(٢) سورة النحل، آية ٥٨ و٥٩.

(٣) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٤٨٨.

صالح يذود عن حياض البلد ـ القبيلة ـ ويواصل مسيرة الآباء والأجداد. وأشارت إلى أنّ مهمتها الأولى تكمن في كونها أماً وزوجة، سواء كان مجتمعها متخلفاً أو متقدماً ومتطوراً، لأنها سرعان ما تشتكي من عدم الزواج وتأخره، وتصبح عندئذ عصبيّة متذمّرة، تثور على أبسط الأشياء وتغضب لأتفه الأسباب.

ولعلنا لا نغالط الحقيقة إذا قلنا انّ الخالق صوّرها على هذه الشاكلة، وجعل سمة الأمومة خاصة بها، تدبيراً لأوضاعها وحكمة لخصائصها، مهما ادعى القائلون في قدراتها وإمكانياتها المعنوية والمادية، وتحدثوا عن ضرورة مساواتها بالرجل، ومزاحمتها له في أعماله كافة المدنية والبدوية، البيئية والوظيفية، منطلقين من نظرات واهية وفلسفة طوباوية بعيدة عن الواقع، ومن دون أن يدركوا أنّ المرأة الناجحة في عملها تكون قد بلغت نصف الطريق، إذا لم تكمّل دينها ـ كما يقول العرب المسلمون ـ وتتزوج وترزق البنين الذين يحقّقون إلى جانب المال سعادة الحياة وزينة الدنيا.

لذلك كان لا بد لمجتمع الجاهلية، الذي حرص على أصالة عاداته وعراقة أعرافه، أن ينظم العلاقات بين الجنسين، ويضع نظاماً للزواج، خوفاً من أن يسوده الاضطراب، وتتآكله الفوضى ويكون مصيره إلى الانقراض والزوال.

ويُعتقد أنّ عرب الجاهلية لم يتّبعوا نهجاً واحداً في الزواج ومسلكاً معيناً، لأنّ طبيعة الحياة فرضت طرقاً وأنواعاً مختلفة، فكان من حق المرأة الحرة والصريحة النسب أن تختار زوجها بنفسها، من دون تدخل ذويها، أو إكراهها على الاقتران بمنْ لا ترغب فيه. مثل ما نُقل عن الخنساء التي رفضت رغبة أبيها في تزويجها من دريد بن الصمة ـ فارس هوازن وسيد بني جشم ـ لكبر سنه. إلاّ أنّ سائر النساء كنّ يخضعْن لرأي الآباء وقرارهم، وأنّ الزواج كان يتمّ أحياناً من دون إرادة الطرفين واختيارهما، أو من دون أن يراها الزوج، الذي يكتفي بما نُقل إليه عن صفاتها الخلقية والجمالية، وعن قدرات ذويها ومكانتهم الاجتماعية والاقتصادية.

وقد فضّل العرب في الفترة القريبة من الإسلام زواج الأباعد ـ البعيد عن القرابة والأهل ـ وإيثار الزواج من خارج العشيرة، لأنهم لاحظوا أنّ الأولاد في هذه الحالة يكونون أقوى أجساماً وأنضر صحة. بالإضافة إلى أنّ الزواج من امرأة غريبة يخفّف من المشكلات العائلية، لعدم تدخل الأهل في الشؤون الداخلية والأمور الخاصة. وكانت عادة العرب أن تخطب المرأة إلى أبيها أو أخيها أو عمها. وكان يخطب الكفء إلى الكفء، فإنْ كان أحدهما أشرف رغب له في المال، وكان الخاطب يقول: «انعموا صباحاً. . . . نحن أكفاؤكم ونظراؤكم فإنْ زوجتمونا فقد أصبنا رغبة وأصبتمونا وكنّا لصهركم حامدين، وإنْ رددتمونا لعلّة نعرفها رجعنا عاذرين»[1].

وكان الزواج في العصر الجاهلي قد عرف أنواعاً هي:

١ ـ زواج المهر أو الصداق: وهو الزواج المعروف في معظم القبائل العربية، ولا يزال هو المفضّل في المجتمعات العربية المعاصرة، ويتمّ باتفاق الخاطب وعائلته مع أهل الفتاة على مهر معيّن يأخذه وليّ الفتاة.

وسيّئة هذا النوع أنّ أهل الفتاة ربما أكرهوها على الزواج من رجل لا ترغب فيه، أو ربما عضلوها ومنعوها من الزواج في حال عدم موافقتهم على المتقدم منها[2].

وقد كرس الإسلام هذا النوع من الزواج وحرّم كلّ ما عداه، وهذبه بحيث منع العضل وتزويج البنت رغماً عنها.

٢ ـ زواج الرهط: وعُرف عند بعضهم بزواج المشاركة، ويتمّ بأن يدخل رهط من الرجال لا يتجاوز عدده العشرة على الزوجة ـ المرأة الواحدة ـ يصيبها كلّ بدوره، فإذا حملت ووضعت أرسلت إليهم واجتمعت بهم وقالت لهم: عرفتم أمري، وتنسب ولدها إلى منْ تشاء منهم، ويلحق به

(١) الشهرستاني: الملل والنحل جـ ٢ ص ٢٤٦.

(٢) أحمد الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي ص ٢٠٠.

دون أن يمتنع الرجل أو يرفض طلبها وتُصبح له زوجاً.

ويعود هذا النوع من الزواج إلى صعوبات عدة، منها عدم تمكن الرجل من تحمل نفقات الزواج، أو كثرة الحروب والغزوات، التي تسبّبت في إيجاد سبيّات أسرى يتعذر توزيعهن على الرجال لدوافع عدة.

يُروى أنّ عمرو بن العاص ادعاه خمسة عشر نفراً من قريش، ولما وجدوا أنّ العاص أشبههم نسبوه إليه وألحقوه به[1].

٣ ـ زواج المبادلة: وعُرف أيضاً بزواج الشغار، وكان يتمّ بمقايضة نساء الرجال دون أي مهر، أي أن يتفق الرجل على الزواج من ابنة الرجل أو موليته شرط أن يزوجه ابنته أو موليته، أو أن يكون نكاح البدل، ويتمّ بأن يقول الرجل للآخر تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي.

٤ ـ زواج المقت أو الميراث: وقد سماه بعضهم زواج الضيزن[2]، الذي يُعدّ من أقبح ما صنعه الجاهلي لأنه جمع فيه بين الأختين أو اختلف فيه على امرأة أبيه، والذي أورده الشهرستاني في كلامه على تقاليد العرب، وبيّن أنّ أوس بن حجر التميمي عيّر قوماً من بني قيس بن ثعلبة تناوبوا على امرأة أبيهم الواحد بعد الآخر:

والفارسيةُ فيكم غيرُ مُنْكرةٍ وكلكم لأبيه ضيزنٌ سلَفُ[3]

وكان يتمّ بأن يتزوج الولد امرأة أبيه المتوفى شرط أن لا تكون أمه التي ولدته، وتعدّ في هذه الحال كجزء من الميراث، يتوارثها الأبناء الأكبر سناً كما يتوارثون المال والماشية. إنْ شاؤوا زوّجوها وأخذوا صداقها، وإنْ شاؤوا لم يزوجوها ليرثوها بعد موتها. مع العلم أنّ الابن الأكبر يورث زواجها لمن يريد، وقد يرثها أقرب الرجال إلى زوجها فتقترن به من دون مهر[4].

---

(١) ظافر القاسمي: الحياة الاجتماعية عند العرب ص ٢٤.
(٢) الضيزن: منْ يزاحم أباه في امرأته.
(٣) الشهرستاني: الملل والنحل جـ ٢ ص ٢٤٥.
(٤) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في العصر الجاهلي ص ٤٤٦.

بالطبع أبطل الإسلام هذا النوع من الزواج وحرمه بقوله تعالى: **﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلاّ ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا﴾**[1].

بيد أنّ هذا النوع من الزواج انحصر عند قلة من كبار عائلات القبائل العربية، لأن معظم الرجال الذين تزوجت نساؤهم من خلفهم، كانوا من الميسورين والمرموقين في قومهم، أمثال هاشم بن عبد مناف، الذي خلف والده على زوجه واقدة، أو والد عمرو بن أمية بن عبد شمس الذي خلف والده على زوجه آمنة.

٥ ـ زواج المتعة: وعُرف بالزواج المؤقت، وهو عقد زواج شخصي بين رجل وامرأة غير بكر لمدة معينة على مبلغ محدد، سواء كانت المدة أشهراً أو أياماً أو ساعات، يتوقف مفعول هذا الزواج بانتهاء المدة المشروطية، وهو يشبه زواج المهر لولا مخالفته إياه باشتراط المدة.

أما إذا حملت المرأة أثناء هذه المدة فيكون لأولادها حق الانتساب إليه وحتى الإرث أيضاً، على أساس أنهم أولاد شرعيون، يعاملون كأولاد الزواج العادي[2]، أما إذا انقضت العدة فلا سبيل له عليها.

كان هذا النوع من الزواج واسع الانتشار بسبب تجارة القوافل واضطرار الرجال إلى السفر والتغيّب مدة طويلة، الأمر الذي يدفعهم إلى التزوج في الأماكن التي تحط فيها قوافلهم. وقد زعم بعض المؤرخين أنّ بعض أصحاب القوافل وأغنياء مكة كانت لهم حريمهم الخاص في محطات قوافلهم.

وقد اختلفت المذاهب الفقهية في هذا النوع، فعلى حين يرى أهل السنة أنّ الإسلام أبطل هذا النوع من الزواج وحرمه، استناداً إلى أقوال شهود في تحريم الرسول ﷺ له، ونهي عمر بن الخطاب الذي كان من أشد أعداء

---

(١) سورة النساء، آية ٢٢.

(٢) علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ص ٥٠٦.

الاستمتاع، والذي كان يردد قائلاً: لا أوتى برجل تزوج امرأة إلى أجل إلاّ رجمتها بالحجارة[1]، فإنّ الشيعة أجازته وعملت به، ولم ترَ دليلاً ثابتاً على تحريم الإسلام له، ولا تعترف بصحة الحديث الذي نهى فيه الرسول عن هذا الزواج، واعتبرت أنّ الآية الكريمة الآتية من سورة النساء تبيح هذا النوع من الزواج: **﴿والمحصنات من النساء إلاّ ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحلّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غيرَ مُسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جُناحَ عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة...﴾**[2].

أعاد بعض المحللين زواج المتعة إلى ما عُرف قديماً عن الزواج الوقتي، حين لم تكن المرأة مرتبطة مع الرجل برباط متين وشرعي، وكانت تجامع يوماً زيداً ويوماً عمراً. وهي المجامعة التي تعدّ قريبة من الزنا، ومن الأمور الشاذة الناتجة في الغالب عن قلة النساء.

ولهذا لا نجاري بعض المستشرقين الذين تحدثوا عن معرفة عرب الجاهلية لتعدد الأزواج، لأنهم كانوا يفضلون النكاح الوقتي، ويقضون عمرهم في التجوّل والتنقل، ونساؤهم يجامعن مَنْ أردن من الرجال لأجل مسمى، بعد أن يأخذن منهن أجورهن[3]، التي اختلف الفقهاء في تفسير معناها.

فإذا كانت الشيعة تعتقد أنّ كلمة «أجورهن» الواردة في الآية المذكورة سابقاً تعني صراحة نكاح المتعة، بناء على ما نقل عن ابن العباس ـ مرجع الشيعة ـ الذي فسرها بقوله فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمّى فآتوهنّ أجورهن[4]، فإنّ المتأخرين من أهل السنة عارضوا هذا التفسير وأكدوا أنها تعني المهور.

---

(١) الزمخشري: الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل القاهرة ١٩٢٥ جـ ١ ص ٤٥٢.

(٢) سورة النساء، آية ٢٤.

(٣) بندلي صليبا الخوري: دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب، دار الطليعة بيروت ١٩٧٧ ص ص ١١٩ ـ ١٢٧.

(٤) المصدر نفسه ص ١٣٥.

ويُقال انّ الرسول قد أحلّ في البدء نكاح المتعة ثم حرّمه مع فتح مكة أو مع فتح خيبر، ويُروى عن ابن عباس أنه لما سُئل عن المتعة، أجاب بأنّ محمداً كان يرخّص بالمتعة عند الضرورة فقط، ولاسيما مع ظهور الإسلام وفي الغزوات، حين لم يكن المتقاتلون يصطحبون معهم نساءهم.

٦ - زواج الأسر أو السبي: وعُرف عند المحاربين المنتصرين الذين من حقهم الزواج من نساء المحاربين المغلوبين، ومن السبايا اللواتي أسروهنّ، ويتمّ طبعاً هذا الزواج من رضى الفتاة وأهلها، وليس فيه مهر، كزواج عروة بن الورد من امرأته سلمى من بني كنانة، التي تكنّى أم وهب، والتي فضلت تركه على أن يُقال لها سبية. وقد رغب العرب في هذا النوع لأنه بلا مهر، وينتج في الغالب نسلاً قوياً[١].

٧ - زواج الإماء: ويتمّ هذا النوع بزواج الرجل من أمته التي إذا أنجبت سمّيت الأمة المولدة، أو التي إنْ شاء زوجها عتقها مع أولادها، وألاّ تظل عنده أمة، ويبقى أولادها عبيداً له وإماء.

ويلاحظ انّ بعض العرب كان يُكره إماءه على ممارسة البغاء وتعاطي الزنا، وان عبد الله بن سلول مثلاً كان يُكره جاريته على تعاطي البغاء، وأنها حين أتت الرسول وشكت له هذه الفعلة، أنزل الله الآية: **﴿لا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصّناً﴾**[٢].

إذا كنا قد حصرنا دراسة الزواج عند عرب الجاهلية بهذه الأنواع السبعة، فإن هذا لا يعني عدم تعرّف هذا المجتمع إلى أشكال أخرى من العلاقات الزوجية، التي إنْ تغاضيت عن بعضها ولم آتِ على ذكرها لاعتقادي أنها ثانوية وعابرة، لا تمثّل ظاهرة عامة، أو نظاماً اجتماعياً أقرّته الغالبية من الناس، وتعارف عليه أبناء العصر، بل هي أشبه بمساوىء خلقية واجتماعية، خرجت عن الأعراف العربية وعاداتها، وعُرفت عند فئات قليلة،

---

(١) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في العصر الجاهلي ص ٥٠٤.

(٢) سورة النور، آية ٣٣.

كزواج الاستبضاع الذي لا يختلف إطلاقاً عن الزنا، والذي يُعد من الأنواع الشاذة، ويتمّ هذا النوع بأن يسمح الرجل لامرأته أن تستبضع ولداً من بطل أو فارس يعجب به، ليكون له سنداً وقوة في حياته. وفي هذه الحالة يعتزل الزوج امرأته حتى يتبيّن حملها من ذلك الرجل.

ويبدو أنّ الدراسات أعادت هذا الزواج ـ الشاذ ـ إلى بلاد اليمن حين كان الرجل يُمنع من الزواج بامرأة ثانية، حتى ولو كانت الزوجة عاقراً، الأمر الذي دفع المرأة العاقر إلى أن تقدّم له جارية يستولدها ذكراً.

ولعلّ هذا الإجراء كان مقدمة لنظام تعدّد الزوجات وأشكاله، الذي عرفته معظم الشعوب القديمة، كاليهود والفرس والعرب، وما زالت معظم الشعوب العربية والإسلامية تقرّه وتعمل به.

فقد ذكر الطبري أنّ للرجل الحق في التزوج بعشر نساء[1]، أما الإسلام فأبطل ذلك ونظم الحياة الزوجية، وحرّم ما تقبّله الجاهلي من الجمع بين الأختين في آن معاً، وحدّد عدد الزوجات بأربعة شريطة عدم التمييز ووجوب إقامة العدل بينهن.

وقد عزا المؤرخون هذه الظاهرة إلى أسباب إنسانية واقتصادية، كأن يتزوج الرجل بامرأة ليس لها معيل ويدخلها في عصمته، أو اجتماعية بهدف تصريف النساء الفائضات في المجتمع الجاهلي، أو سياسية بسبب الغزوات المتوالية والحروب الدائمة، التي قصّرت أعمار الذكور وقلّلت عددهم وزادت من عدد النساء، والتي تطلبت مصاهرة قبائل، توفّر من جهة الزعامة وتؤمن من جهة أخرى التأييد والتضامن، علماً أن نظام تعدد الزوجات قد حلّ مشكلة، عندما أباح للزوج الاحتفاظ بزوجته العاقر والاقتران بمن تنتج له نسلاً.

بيد أنّ الأوروبيين أنحوا عليه باللائمة، ورأى كثير من مؤرخيهم أنّ مبدأ تعدد الزوجات يعود إلى انتشار الإسلام وانحطاط الشرقيين. ونظن أنّ

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ١٥٧.

الحس النقدي ـ الواقعي والمنطقي ـ يدحض هذه الأوهام، ويثبت أنّ مبدأ تعدد الزوجات في الشرق نظام متطور، يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تعتمده، ويزيد الأسرة ارتباطاً، ويمنح المرأة احتراماً وسعادة لا تراهما في أوروبا(1) ونعود بسببه إلى حب الشرقيين لكثرة الأولاد وميلهم الشديد إلى حياة الأسرة.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنّ نظام الأمومة عُرف في البدء عند الشعوب القديمة، التي احترمت المرأة ورفعت من شأنها، ورأستها في الهيئة الاجتماعية وحصرت نسبة الأبناء بها، لأنها الوحيدة المعروفة من أبوي الولد. وعُرف في الجزيرة العربية أنّ المرأة ـ صاحبة السلطة في شؤون الأسرة واهتماماتها العائلية ـ كانت تتزوج وتبقى وأولادها عند أهلها في كنف عشيرتها، ويُعرف الأولاد في هذه الحالة باسم أمهم لا باسم أبيهم، الذي يرحل عنها ويتردد عليها بين الحين والآخر، ويلتحق بالقوافل ويذهب للانتجاع بعيداً عن منازل المرأة.

ونعتقد أنّ نظام الأمومة يعود إلى قلة عدد النساء وزيادة عدد الرجال، الذين اضطروا إلى مجامعة امرأة واحدة، ونرى أنّ أبحاث العلماء في العصر الحديث تكاد تظهر أنّ نظام الأمومة أو نظام تعدد الأزواج أمر طبيعي، عمّ جميع شعوب الأرض، ويتم بأن يقيم الزوج عندها مدة طهرين متعاقبين، وعندما تلد تعيّن أباه وتسميه باسمه.

إرتبط هذا الزواج بظاهرة الطلاق التي عدت حلاً منطقياً لمشكلات مستعصية وأزمات عائلية حادة، خوفاً من نتائج وخيمة تطال العائلة والمجتمع. وقد زعم بعض الإخباريين أن الطلاق كان من حق كل من المرأة والرجل، وادعى آخرون أنه كان من عصمة الرجل من دون المرأة، إلا في حال اشتراطه في العقد.

ويلاحظ أنّ العرب كانوا يطلقون ثلاثاً عند التفرقة، وكان أوّل من طلق

---

(1) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٤٨٣.

إسماعيل بن إبراهيم، وأنهم عند الطلاق الأول يظل الزوج أحق الناس بها، حتى إذا استوفى الطلاق الثالث انقطع عنها وخلى سبيلها. وبالأحرى كان يُحرّم رجوع الرجل إلى زوجته حتى تنكح غيره، وقد عرفته الحياة العربية في الجاهلية وأقره الإسلام وثبّته. وكان بعض العرب يمنعون مطلقاتهم أن تتزوجن من بعدهم. وقد حرّم الإسلام هذا النوع وخصّ به نساء النبي فقط.

كانت المرأة ـ صاحبة العصمة وذات المحتد الكريم والأصل النبيل ـ قد لجأت إلى طرق مختلفة لإعلام زوجها عن عدم رغبتها به وطلاقها منه، كأن تغيّر وجهة أبواب الأخبية، فإنْ كانت من جهة المشرق حوّلته قبل المغرب، وإنْ كانت قبل الشمال حوّلته قبل اليمين، أو أن تُعطي الزوج رمحاً وخيمة، لأنّ الرمح إشارة إلى مسؤولية الاصطياد الشخصية، والخيمة إشارة إلى أنه سيسكن وحده. وهذا شأن حاتم الطائي عندما طلقته زوجته ماوية، أو أن تتوقف عن تهيئة طعامه كسلمى بنت عمرو بن زيد النجارية ـ أم عبد المطلب بن هاشم ـ وغيرها من النساء اللواتي جعلن أمرهن إليهن، وكانت علامة ارتضائها للزوج معالجة طعامه صباحاً.

وهكذا تتبيّن مكانة المرأة في العصر الجاهلي ودورها في جوانب الحياة المختلفة، معزّزة التحليل المنطقي الذي بلور مدى وعيها لأمورها الخاصة، وتعاطيها مع القضايا الاجتماعية المستجدة.

الفصل السابع

الحياة الدينية والعقائد الوثنية

أ ـ العبادات الوثنية: مراحلها وتطورها

ب ـ أصنام الجاهلية وأوثانها

ج ـ الجن والشياطين في معتقد الجاهلية

د ـ بيوت العبادة ومناسكها

هـ ـ ديانات التوحيد

الحياة الدينية والعقائد الوثنية في الجاهلية

بعد أن درسنا أحوال عرب الجزيرة العربية السياسية والاجتماعية، لا بد من معالجة الوضع الديني وما عرفه من ظواهر، زخرت من جهة بمعتقدات أرضية حفلت بالوثنية والشرك والمجوسية، التي اختلفت طقوسها وأعمالها باختلاف الدول والقبائل، ومن جهة أخرى عرفت بلادها أدياناً سماوية، كانت مهبطاً لعدد من الأنبياء والرسل، قص القرآن الكريم علينا أخبار بعضهم الذين بشّروا بالتوحيد وعبادة الله تعالى.

العبادات الوثنية: مراحلها وتطورها:

يلاحظ أنّ العرب عموماً وثنيون عبدوا الأصنام والأوثان، وآمنوا بالدهرية التي تدعي أن الطبع هو المحيي، وأن الدهر هو المفني، والتي وصف القرآن الكريم أتباعها بقوله: ﴿**وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر...**﴾[1] وبالأحرى أن عقيدتهم الدينية مرت بمراحل أربع، اتسمت بطابع المرحلة وتطور المعتقد.

المرحلة الأولى: وهي عبارة عن عبادة وتقديس أشياء مادية محددة، كالحجارة والأشجار والجبال... وعُرفت تحت اسم حيوية المادة. جعلت البدوي يتصور أنّ ثمة روحانية تتواجد في هذه الأشياء وتعطيها فائدة حيوية[2] تتحكم بحركة الوجود البشري والكوني، وتكون جديرة بعبادة الإنسان.

(١) سورة الجاثية، آية ٢٤.

(٢) علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ص ١٥٤.

عبد العرب قديماً الآبار في الصحراء القاحلة، وقدّسوا ماء زمزم التي أمدّت السيدة هاجر وابنها إسماعيل بالماء، وعبدوا الشجر واعتقدوا أنّ الآلهة تسكن فيه. وكذلك عبدوا الأحجار وشكّل الحجر الأسود الذي اختلف عن اللون الرملي المعتاد في الصحراء إشارة بارزة عند البدوي، استدلّ بها على طريقه في مناطق متشابهة الاتجاهات، وعبدوا بعض الأشجار واعتمدوا عليها كغذاء رئيسى مثل شجر النخيل وشجر القريض ـ ذات الأنواط ـ التي تعلّق عليها الأسلحة والزاد في كل عام أثناء الحج تعظيماً لها، ورأوا في بعضها الآخر روح الشر كشجرة الحماطة، التي تُعتبر من أحب الشجر إلى الحيات. كما عبدوا الكهوف التي مثّلت في الصحراء ملجأ البدوي من عاديات الدهر، وكان الرسول ﷺ قد اتخذه ملاذاً من أعدائه، احتمى به وصديقه أبو بكر من أتباع كفار قريش الذين حاولوا النيل منه ومضايقة مريديه وملاحقتهم.

المرحلة الثانية: وهي عبارة عن عبادة الأجرام السماوية التي عرفتها بوجه خاص بلاد العربية الجنوبية. وكان من أهمها الثالوث الإلهي الذي مثّله القمر وزوجته الشمس وابنهما الزهراء، والذي قال تعالى في هذه العبادات: **﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾**[1].

عُدّت هذه العبادات من مقومات المجتمع الجاهلي، فرضتها طبيعة المرحلة ومتطلبات الحياة، ولبّت أضواء أجرامها ما افتقده الإنسان في معرفة الوقت وتعيين الاتجاه. فعبد العرب القمر لتأثيره في تحسين المراعي بالطل والندى. وعُبدت بين آلهة العرب أسماء لبعض هذه الأجرام كالشِّعْرى وسمّيت العَبُور، عبدتها قبيلة عبد قيس وخزاعة، والدَّبران الذي عبدته طسم، والثريّا ـ عدة كواكب مجتمعة ـ عبدتها مذحج وقريش.

ويلاحظ أنّ هذه الأجرام عُبدت أثناء غياب القمر والشمس التي استأثرت عند البدوي بمنزلة هامة، لأنها من جهة كما أشرنا تعطي النمو

---

(١) سورة فصّلت، آية ٣٧.

والحياة للمزروعات، ومن جهة أخرى كان يهابها البدوي ويخاف منها، لأنها عندما تغضب ـ كما كان يُعتقد ـ تحرق بشواظها العشب وتدمّر حياته الرعوية[1].

المرحلة الثالثة: وهي عبارة عن إيمان البدوي بقوى إلهية أكثر شمولاً وتجريداً، تمثلت بظهور عبادة الأصنام وانتشار أوثانها وشيوع بيوت آلهتها، التي أضحت معروفة في أرجاء الجزيرة كلها، والتي ارتكزت على الاعتقاد بأن الإله الذي يسكن حرماً أو بيتاً يُلزم الناس على زيارته تبركاً واستعطافاً. وكان من أشهر الآلهة انتشاراً وأكثرها معرفة اللات لأهل الطائف، والعزى لأهل مكة، ومناة لأهل المدينة.

وقبل الحديث عن المرحلة الرابعة وهي مرحلة التوحيد، أود أن أشير إلى ظاهرة جديرة بالاهتمام هي وجود اتجاه توحيدي لم يكتمل، أخذ يشق طريقه في مجتمع الجزيرة العربية إلى جانب العبادات الأخرى في المراحل الثلاث، وانتشر في مناطقها وذاع خبره عند قبائلها. بدليل كثرة النقوش التي وردت في آثارها أسماء مثل سعد الله وهب الله وزيد الله، أو التي وردت فيها ابتهالات مثل «يا الله اهدني» و«يا الله مكنني من تحقيق الخلاص» و«يا الله امنحه السلام»، وذكر رب العالمين في آيته الكريمة التي توجهت إلى الجاهليين قبل أن يسلموا **﴿ولئن سألتهم مَنْ خلق السموات والأرضَ ليقولنّ الله...﴾**[2].

إنّ المقصود بلفظة الله هنا هو المعبود الجاهلي الذي كان على رأس المعبودات عند أهل قريش، وليس الله سبحانه وتعالى، لأنّ الجاهلي في هذه المرحلة المتقدمة والمتطورة نسبياً استطاع أن يتعرّف إلى قيمة العمل الصالح، وتمكّن من أن يؤمن بالله خالق العالم والمسيطر على الكون كله، من غير أن يكون له نظام في العبادة.

(١) لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة ص ٨٥.

(٢) سورة لقمان، آية ٢٥.

المرحلة الرابعة: وتمثلت هذه المرحلة بالرسالة التوحيدية التي جسدتها المسيحية واليهودية، بالإضافة إلى الحنيفية التي تميّزت عن الديانتين السابقتين بأنها اتبعت خطوطاً رئيسة، ظهرت في عقيدة إبراهيم وشريعته، والتي اشتدّ ساعدها على يد نفر من الحنفاء الخمسة ـ وهم المتشدّدون في حفظ تقاليد إبراهيم الموروثة ـ الذين رفضوا الحياة الدينية الوثنية، واستنكروا الحالة الاجتماعية السائدة آنذاك، ولم يجدوا اطمئناناً لليهودية المنطوية على نفسها والمتعارضة مع الطبيعة السمحة، أو للنصرانية المنقسمة على نفسها مذاهب متنافرة، يتقاتل أهلها باللسان والسنان، والذين اتخذوا حياة فطرية قامت على الأخلاق الفاضلة وإيثار المعروف وحب الخير، وتركوا عبادة الأوثان وشرب الخمر، واعتزلوا المنازعات القبلية وزهدوا في متاع الدنيا وساح بعضهم في البلاد ترفعاً وتنسكاً[1].

ولعلّ هؤلاء الحنفاء قد نزهوا أنفسهم من أوضار الوثنية، واستقبحوا عبادة الأصنام، واستعظموا خطورة وأد البنات، وتمنعوا عن شرب الخمر ولعب الميسر، فآمنوا بوجود إله واحد، واستخلصوا لأنفسهم مذهباً تقياً، ومن هؤلاء عثمان بن الحويرث وأمية بن أبي الصلت وزهير بن أبي سلمى وورقة بن نوفل ـ ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد ـ الذي اعتزل عبادة الأوثان وقرأ الكتب وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان، والذي رآه النبي في منامه وعليه ثياب بيض، وقال عنه أظن لو أنه من أهل النار لم أر عليه البياض[1]. يقول ورقة عن إيمان بلال الحبشي وصموده أمام الكفر والإشراك:

لا تعبُدنّ إلهاً غيرَ خالقكم   فإن دعوْكم فقولوا بيننا جُدَدُ
مسخّرٌ كل ما تحت السماء له   لا ينبغي أن يناوي ملكه أحدُ
لا شيء مما نرى تبقى بشاشته   يبقى الإله ويودي المال والولد[2]

وقس بن ساعدة الذي آمن بالإله الواحد، واعتقد بيوم الحساب وقال

---

(١) عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٨٣.

(٢) الأصفهاني: الأغاني جـ ٣ ص ١٤.

في مواعظه: «كلا ورب الكعبة: ليعودنّ ما باد ولئن ذهب ليعودن يوماً»[1].
وقال أيضاً:

كــلا بــل هــو الله إلــه واحــد لــيــس بــمــولــود ولا والــد
أعــــاد وأبــــدى وإلــيــه الــمــآب غــدا[1]

وكذلك أمية بن أبي الصلت الذي آمن بوحدانية الله وحرّم على نفسه الخبائث من الأفعال، قال أثناء مرضه: «قد دنا أجلي وهذه المرضة منيتي وأنا أعلم أن الحنيفية حقّ، ولكنّ الشك يداخلني في محمد، وأنّ المنية عندما تأتي لا يفديها مال ولا تنجيها عشيرة وهو القائل:

كــل عــيــش وإن تــطــاول دهــراً مــنــتــهــى أمــره إلــى أن يــزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في رؤوس الجبال أرعى الوعولا
إجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إن للدهر غولا[2]

وزيد بن عمرو بن نفيل الذي تأله في الجاهلية، وترك عبادة الأصنام وغيرها من العبادات الوثنية، والذي يُعتقد أنه لم يبق على دين إبراهيم غيره قال يوماً:

تركتُ اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبورُ
فلا العُزّى أدين ولا ابنتيها ولا صنميْ بني غنم أزور
ولا هــبــلاً أزور وكــان ربــاً لنا في الدهر إذ حلمي صغير[3]

لقد شقّ الحنفاء طريقهم وسط مفاهيم إلحادية ومعتقدات وثنية، واستطاعوا بحسّهم النقدي ومعرفتهم العقلية أن يؤمنوا بوحدانية الخالق، وأن يكونوا قريبين من الإسلام، الذي بلور جوهر الحنيفية، وكان مرادفاً لها. وهذا ما نفهمه في قوله تعالى: **﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾**[4]، ونستشفّ ذلك من الحديث

(١) الشهرستاني: الملل والنحل جـ ٢ ص ٢٤٢.
(٢) الأصفهاني: الأغاني جـ ٣ ص ١٩٢.
(٣) ابن الكلبي: كتاب الأصنام، الدار القومية القاهرة ١٩٢٤ ص ٢٢.
(٤) سورة آل عمران، آية ٦٧.

النبوي الذي سمّى الإسلام بالحنيفية، علماً أنّ بعض الرواة جعلوا بعض الحنفاء نصارى رغم التناقض الصارخ بين الحنيفية وكل من النصرانية واليهودية والوثنية.

هذه هي أهم العبادات التي شهدها مجتمع الجاهلية إبان مراحل تطوره والتي سنوضحها بدراسة أصنام الجاهلية وأوثانها، بالإضافة إلى معتقدات أخرى كالجن والشياطين، وسنتوقف عند طقوس هذه العبادات وبيوتها، ونتبيّن مكانة الديانات السماوية عند الإنسان الجاهلي.

لكن قبل الحديث عن ذلك كله لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الإخباريين لم يفرقوا بين كلمة الدين والمعتقدات الوثنية، رغم الفارق الكبير بينهما. ويعود هذا الخلط إلى معنى هذه الكلمة، الذي تغيّر وتطور من الاعتقاد بكائنات غيبية ذات القوة المؤثرة في الأمور الحياتية والقضايا المصيرية، إلى الإيمان بخالق واحد لهذا الكون. وقد تجسّد هذا الإيمان في طقوس وعبادات، اختلفت على مدى العصور والأزمنة، وتوقفت عند عقلية الناس ومدى إدراكهم لحقائق الأشياء ومقومات الأحداث ومسبباتها.

وبالأحرى فإنّ كلمة الدين عند الجاهليين دلت على العادات والأعراف الوثنية، وأصبحت القوة الوازعة في الحياة الاجتماعية، في حين أنّ الإسلام أعطى هذه الكلمة مفهوماً مبدئياً يقوم على عقيدة التوحيد والرسالة السماوية، وأنّ الدين بمعنى العلاقة بين الإنسان والخالق لم يرد ذكره عند الجاهليين، إلاّ في بيت واحد من الشعر نشكّ في صحة نسبته إلى أمية بن أبي الصلت:

كل دين يوم القيا مة إلاّ دين الحنيفة زور

ويبدو أنّ تغيّر العادات والطقوس عند المجموعات القبلية كان يؤدّي إلى تغير الآلهة وتعددها، انسجاماً مع قانون التطور، وتلبية لرغبات القبائل وتطلعات أبنائها في حماية حياتهم من عاديات الأيام.

أصنام الجاهلية وأوثانها:

كان عرب الجاهلية وثنيين يعبدون الأصنام ويؤلهون الكواكب وينكرون الخالق ولا يعترفون بالآخرة والبعث، وزعموا أنّ الأصنام شفعاؤهم عند الله

في الدار الآخرة، فحجّوا إليها ونحروا لها الهدايا، وقدّموا لها القرابين، وتقربوا إليها بالمناسك، ومثّلوا لها في أشعارهم:

حياةٌ ثم موت ثم بعث   حديثُ خرافة يا أمّ عمرو

ويُقال انّ الوثنية وفدت إلى أرض الجزيرة من العراق والشام، وانّ آلهتها تسرّبت من مدنها الحضرية، ويُروى أنّ المجوسية لم تنتشر بين العرب، وإنْ كان بعض أتباعها قد أقاموا في هجر في البحرين، ونقلوها من الفرس أثناء رحلاتهم التجارية وعلاقتهم الاقتصادية.

اختلف الإخباريون حول ماهية الأصنام وتعريف الأوثان، فقد عرّف ابن الكلبي الوثن بأنه التمثال المصنوع من الحجارة[1]، وأنّ الصنم ما كان من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان، ورأى ابن الأثير أنه حجر أو جثة مصنوعة من جواهر الأرض، أو أنه من الخشب والحجارة على صورة آدمي، يُنصب ويُعبد[2].

وزعم صاحب اللسان أنّ الصنم ينحت من خشب ويُصاغ من فضة ونحاس، وهو ما كان له جسم أو صورة، وأنّ الوثن ما لم يكن له جسم أو صورة[3]. وذكر أنّ أصل الأوثان عند العرب كل ما نُصب وعُبد، وأنّ النصارى بعد أن نصبت الصليب وعظمته وعبدته قال محمد ﷺ لعدي بن حاتم الذي قدم على النبي وفي عنقه صليب من ذهب: «الق هذا الوثن عنك»[4]، من دون أن يميّز كثيراً بين الوثن والصنم.

ويُرجّح أنّ الكلبي قد تأثر في تعريفه بما هو مشهور من أصنام شبيهة بالإنسان. فقد ذكر أنّ هبلاً ـ أشهر آلهة العرب وأعظم أصنامهم ـ المقتبس من الآرامية ومعناه الروح، كان من العقيق الأحمر، على صورة إنسان

---

(١) ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ٥٣.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر القاهرة مجلد ١٣ مادة وثن ص ٤٢٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٤٩.

(٤) المصدر نفسه ص ٤٤٣.

مكسور اليد اليمنى، وأنّ قريشاً أدركته فجعلت له يداً من ذهب[1]. وكان موضعه على بئر في جوف الكعبة، حمله أبناء قريش واستجاروا به وأقسموا به، وطافوا حوله، وحطّم عند الفتح.

وكان عند سادن هبل أزلام ـ سهم لا ريش عليه ـ كتب على الأول كلمة نعم وعلى الثاني كلمة لا، وعلى الثالث كلمة منكم. . . فإذا أراد شخص أمراً أعطى السادن مائة درهم وجزوراً وقال: «اللهم اخرج لنا الحق من كذا، ثم يضرب السادن الأزلام فيخرج أحدهم. وعند هبل مثلاً ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله ـ والد الرسول ـ وأمر الصنم بذبح عبد الله، وكانت عملية الفداء والمساومة مع هبل بدفع مائة من الإبل عوضاً[2]. وقد جعله المسلمون بعد الفتح عتبة باب المسجد الحرام، تُوطأ بأقدام الداخلين إلى المسجد والخارجين منه[3].

وهذا ما حدث مع امرىء القيس الذي أثناء إغارته على بني أسد، مرّ بذي الخَلَصَة ـ الصنم الذي عظمه العرب وكان في تبالة ـ وكان له ثلاثة أقداح الآمر والناهي والمتربص، استقسم عنده ثلاث مرات فخرج الناهي. فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم، ثم ذهب وغزا بني أسد. ويُروى أنّ رجلاً من عابديه قال:

لو كنت يا ذا الخَلَص الموتورا   مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنهَ عن قتل العُداة زورا[4]

ويُذكر أن عمراً بن لحي هو الذي أدخل الأصنام إلى الجزيرة العربية، وأمر الناس بعبادتها والتمسّح بها، بعد أن قدم مدينة البلقاء في الشام، ورأى فيها قوماً يعبدون الأصنام، ويتخذونها أرباباً لهم على شكل هياكل علوية وأشخاص بشرية، يستنصرون بها على حياتهم القاسية، وأنه لما عاد إلى مكة

---

(١) ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ٢٨.

(٢) نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم ص ٢٧٥.

(٣) سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٣٥١.

(٤) ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ٣٥.

جلب معه هبلاً ووضعه في الكعبة. وحسب بعض الروايات أنه حمل معه أساف ونائلة، ودعا الناس إلى تعظيمها والتقرب إليها، والتوسل بها إلى الله[1]، حتى ظهر الإسلام الذي حطم أصنامها وقضى على تعاليمها وضرب الوثنية وأنكر الشرك ودعا إلى التوحيد.

ويُروى عن تاريخ الوثنية أنّ آدم عندما مات وُضع في مفازة بالهند وكان أحفاده بنو شيت يأتون جسده ويعظمونه، فحسدهم بنو قابيل ونحت له أحدهم صنماً من عملهم. ويُقال إنّ وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونَسْراً كانوا قوماً صالحين، ماتوا في شهر واحد فنحت لهم رجل من بني قابيل خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم. فكان الناس يأتونهم ويسعون حولهم ومن ثم بدأوا يعبدونهم. وبعد حدوث الطوفان أهبط الماءُ هذه الأصنام من الجبل وقذفها إلى أرض جدة.

ولما نضب الماء ووارتها الرياح في الأرض جاء عمرو بن لحي واستخرجها ودعا العرب إلى عبادتها. وقد عبد سواع في بلدة ينبع في الحجاز من قبيلة هذيل، وكان على صورة امرأة. وعبدت قريش يغوث وكان لمذحج وأهل حرش في اليمن، وكان على صورة أسد. وعبدت همدان في اليمن يعوق وكان على صورة فرس. وعبدت حمْير نسراً واعتبر إله الحضر الأكبر.

وفي هذا الصدد يذكر الإخباريون أسطورة تاريخية أخرى عن نشأة الوثنية مفادها، أنّ أبناء إسماعيل كان لا يرحل أحدهم من مكة إلاّ حمل معه حجراً من الحرم تعظيماً له وصبابة بمكة، وأنهم مع مرور الزمن نسوا حقيقة ما كانوا عليه، واستبدلوا دين إبراهيم وإسماعيل بعبادة الأوثان، التي كانت على نوعين: منقول كالأنصاب، والثابت كمعابد الحجاز وبعض أصنام مكة، وزعموا أنّ آدم حمل الحجر الأسود إلى جبل أبي قبيس المشرف على مكة، ولم ينزله القرشيون إلاّ قبيل الإسلام، وادّعوا أنّ الملائكة أتوا به من الجنة

(١) الشهرستاني: الملل والنحل مجلد ٢ ص ٢٣٤.

ليكون موطئاً لإبراهيم عند بنائه البيت الحرام. وكان أعظم أنصاب عرب الجاهلية، ولا نعلم نصباً كان موضع احترام عند الجاهليين كالحجر الأسود.

وقد كان من عادة عرب الجاهلية أن يطوفوا حول الأنصاب ويذبحوا عندها الضحية. وإنّ منْ لم يقدر على بناء بيت وصُنْع صنم، نصَب حجراً وطاف به، كطوافه بالبيت، وإنّ الرجل إذا سافر أخذ أربعة أحجار ونظر إلى أحسنها واتخذه رباً وجعل ثلاث أثافي لقدره وإذا ارتحل تركه[1].

ويبدو أنّ عرب الجاهلية اختاروا الأنصاب لأنها توافقت مع حياة الترحال السائدة عندهم، ثم تحولوا عنها ببطء إلى عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة، لأنّ الصنم الخشبي لا يمتلكه إلاّ الأغنياء أو منْ احترف صناعة الأصنام منهم كعكرمة بن أبي جهل.

ونظراً لكثرة أصنام الجاهلية فسنتوقف عند أكثرها معرفة وشهرة، ويأتي على رأسها ودّ، الذي كان في دومة الجندل لبني كلب، والذي كان على صورة رجل عظيم، ذبر عليه حلتان، إتّزر حلة وارتدى أخرى. وقد تقلد سيفاً وتنكّب قوساً وأخذ بين يديه حربة فيها نبل[2]. هدمه خالد بن الوليد الذي أرسله محمد ﷺ في غزوة تبوك، بعد أن لاقى مقاومة شديدة من عبدته. وهو الصنم الذي قالت فيه امرأة إثر مقتل ابنها:

ألا تلك المودة لا تدومُ ولا يبقى على الدهر النعيمُ

وقالت قبل أن تنكبّ عليه وتشهق شهقة وتموت:

يا جامعاً جامع الأحشاء والكبد يا ليت أمك لم تولد ولمْ تلد[3]

وعرف بنو ثقيف اللات في الطائف ودعيت عندهم «الربة» أي السيدة، وكانت على هيئة صخرة مربعة، ولها حمى وحرم يحجّ إليها أهل مكة، ويقدمون لها القرابين، ويمنعون اصطياد الحيوان وسفك الدماء في حماها.

---

(١) ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ٢٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٦.

(٣) ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ٥٦.

وكان صنم العُزّى أعظم أصنام قريش قداسة، وكانت قرابينها من الضحايا البشرية، ولها منحر للذبيحة والهدايا. وقد هدمها خالد بن الوليد بعد فتح مكة. وعبد الأوس والخزرج مَنَاة وعظّمتها قريش وشاعت عبادتها عند قبائل هزيل البدوية، وهدمها علي بن أبي طالب عام الفتح، وأخذ سيفين للملك الحارث الغساني الذي كان قد أهداهما لها. وعَبَدت خزاعة وقريش وحُجّاج البيت من العرب أساف ونائلة واتخذتهما آلهة، وهما حسب بعض الروايات رجلاً وامرأة من جرهم، تعاشقا وفسقا في الكعبة، فمسخهما الله حجرين ليتعّظ بهما الناس، ويعتبروا من فعلتهم، في حين أنّ روايات ذكرت أنّ أساف ونائلة كانا صنمين جاء بهما عمرو بن لحي فوضع أحدهما على الصفا، ووضع الثاني على المروة، وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة.

كان من الطبيعي أن تتقلص عبادة الأصنام وتتلاشى مع الوقت المعتقدات الوثنية، وأن تزول المفاهيم الخاطئة وتُضرب الشفاعات الزائفة، لتعلو كلمة الحق ويزهق الباطل، ويعود الناس إلى رشدهم، يسبحون بحمد الله ويعظمون قدراته وأفعاله.

الجن والشياطين في معتقد الجاهلية:

فرضت طبيعة الحياة في الجاهلية مفاهيم محدّدة وتصورات معينة، توافقت مع عقلية الإنسان وإدراكه للمحسوسات المادية المحيطة به، وتزامنت مع الظواهر الفكرية التي بلوُرتها معتقدات خيالية وتصورات بدائية، خرجت من إطار العقل والمنطق، وطرحت المسألة العلمية جانباً، مبقية على أعراف وعادات هي أشبه بالأسطورة والخرافة التاريخية.

ولهذا ليس من الغرابة أن يعمّ الاعتقاد بالجن والشياطين أرجاء الجزيرة العربية، وأن يتخيل الناس فيها الجن وكأنها مخلوقات من هواء ونار لا دخان لها، أو كأنها مخلوقات عاقلة كالإنسان لها أحاسيسها وعواطفها، تهجر مواطنها في الصحراء وتحوم حول مضارب القبائل ليتزوج ذكورها من النساء، وينشأ نسل قوي البنية ذكي الفؤاد، أو أنها مخلوقات هوائية قادرة على خلق شكلها بما تريد، تفعل ما يعجز عن صنعه البشر فيخافونها

ويعبدونها، بدليل أنّ عرب الجاهلية إذا ركب أحدهم في مفازة وخاف على نفسه من الجن والشياطين، أناخ راحلته إلى وادٍ ذي شجر واستعاذ بصاحبه ولسانه قول الشاعر:

قد بتّ ضيفاً بعظيم الوادي   المانعي من سطوة الأعادي
راحلتي في جاره وزادي[1]

اعتقد عرب الجاهلية أنّ الجنّ والشياطين أصحاب نفوذ قوي، ولهم أعمال عجيبة وصلات ببعض بني الإنس من السحرة والكهان والشعراء، يعلمون الأمور المغيّبة والأعمال الخارقة، ولم يصدقوا أنّ بشراً بنى مدينة تدمر التاريخية، ذات القصور الشامخة والأعمدة الضخام، فتوهّموا لعجزهم وضعفهم أنّ كائنات جنّية غريبة، من غير عالمنا، أشدّ قوة وأكثر علماً قد شيّدتها، وهذا ما رأيناه في معلقة النابغة أثناء مدحه للنعمان الذي لا يرضى أن يشبهه أحد:

إلاّ سليمانَ إذ قال الإله له   قم في البرية فاحددها عن الفندِ
وخيّس الجنَّ إني قد أذنتُ لهم   يبنون تدمُرَ بالصُّفاح والعَمدِ[2]

أو في وصف البحتري لبركة المتوكل في سامرّا ومبالغته في ذكر حسنها وسعتها:

كأنّ جنّ سليمان الذين ولُوا   إبداعها فادقّوا في معانيها[2]

اعتقد عرب الجاهلية أنّ كائنات شريرة ومخلوقات غريبة انتشرت بكثرة في الصحراء ـ القفار والصحارى ـ وأثارت في النفس البشرية انفعالاً أدى إلى تداعي تصور خيالي في عالم ما وراء المحسوس، يقوم على الجن والشياطين والغيلان والعفاريت والأطياف والهواتف والأرواح، وتختلف علاقته بالإنسان عن معتقداتهم الوثنية وعبادتهم لها، لأنّ علاقتهم بالآلهة كانت ودية، في حين أنّ علاقتهم بالجن كانت معادية، كونها تشخيصاً لعوادي الصحراء

---

(١) محمد أسعد طلس: تاريخ العرب مجلد ١ ج ١ ص ٧٩.

(٢) عمر فروخ: تاريخ الجاهلية ص ١٦٠.

القاسية وحيواناتها الضارية، والشعور بقوى خفيّة غير مرئية ذات قوة غريبة على الظهور والاختفاء وتبدّل الأشكال، تجعل من المستحيل تحديد ماهيتها واكتشاف كنهها، وبالأحرى تردها إلى عالم مجهول ونفوذ سحري.

وقد ذكر القرآن الكريم الجن والطاغوت في أكثر من موقع، وصوّر الشيطان مخلوقاً من نار، يزيّن للناس أعمالهم ويصدّهم عن سواء السبيل. **﴿والجان خلقناه من قبلُ من نار السموم﴾**(١).

وأورد الجاحظ تفسيراً مشابهاً عندما أعاد اعتقاد الناس بالجن والشياطين إلى جهلهم بالشيء، وأشار إلى أنّ الإنسان إذا استوحش وارتاب، تمثّل كائنات عجيبة، ورأى أموراً خفيّة، وتوهّم أصواتاً سمعية، لأنّ الجنّ تظهر في الليل والظلام الدامس، وتختفي وسط المقابر التي تحوم حولها أرواح الموتى وهامات القتلى الظمآنة.

بيوت العبادة ومناسكها:

اعتاد الجاهليون على إقامة معابد وبيوت للعبادة، ضمّت بين جدرانها أصنام آلهتهم، التي بلغ عددها يوم الفتح ثلاثمائة وستين صنماً، بنوعيها الثابتة في بيوت خاصة، حيث كان المرء يتمسّح بها قبل سفره، والمتنقلة التي كانت القبيلة تصحبها معها في رحلاتها الصيفية والشتوية، والتي كان يتقرّب بها وقت الشدة خاصة، ويستنصر بها أيام الحروب الصعبة، وقد أطلقوا عليها أسماء مختلفة تبعاً لنوعها وحجمها ومن أهمها:

١ ـ الكعبة: وتُعتبر من أشهر البيوت المقدسة وأعظم بيوت الأصنام في بلاد العرب، لأنها أوّل دار للعبادة أقامه إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل بأمر من الله تعالى. قصدها أبناء القبائل العربية من كل فجّ عميق لأداء الحج وإقامة المناسك. وكانت مكة وكعبتها في رعاية قبيلة جُرهم العربية، التي خرجت من أرضها الجنوبية في القرن الثالث ميلادي، ويوجد فيها الحجر الأسود، ويُحيط بها فناء واسع ومكشوف يطوف به الحجّاج ويُعرف بالحرم..

---

(١) سورة الحجر، آية ٢٧.

وقد وردت في القرآن الكريم بأسماء عدة مثل البيت الحرام في قوله تعالى: **﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام. . .﴾**[1]، وسمّيت بالبيت العتيق كما في قوله تعالى: **﴿ثم ليقضوا تَفَثَهُمْ وليوفوا نُذورَهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾**[2]. وذكرت في عدد من الآيات باسم البيت **﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾**[3].

ولعلّ التسمية «كعبة» تعود إلى تطور اللفظة لغوياً، لأنّ الأسطورة تروي أنّ الكعبة التي عُرفت قديماً باسم الخيمة كانت بمثابة قبة، ثم تطورت إلى كعبة، وأنّ الرواة يتردّدون بين كلمتي قبة وكعبة، ويعتقدون أنّ صفة مكعّب مشتقة من الكعبة وليس العكس، ويذكرون أنّ سيلاً جرف الكعبة فهدمها، وأعاد مضاض بن عمرو بناءها على نمط بناء إبراهيم، ثم أعيد بناؤها من جديد قبل الإسلام بخمس سنوات، إثر الحريق الذي شبّ في أطرافها عندما أقدمت امرأة على حرق البخور.

تقرّب العرب إلى الكعبة بالشاة والإبل، واتخذوا الأشهر الحرم الثلاثة الأولى ذو القعدة وذو الحجة ومحرّم مناسبة للقيام بمناسكهم الدينية والطواف حول الأماكن المقدسة، التي غدت فيما بعد أماكن تعقد فيها الأسواق، في حين أنهم اتخذوا من الشهر الرابع رجب فرصة لممارسة التجارة وتقديم القرابين إلى الأصنام، واعتبروا الكعبة حرماً آمناً لا يجوز الصيد والقتل فيه.

٢ ـ بيت: هو أكثر أسماء المعابد شيوعاً، فيه وضع عرب الجاهلية أصنامهم. وهو إذا ما عُرّف أو أضيف إلى كلمة الله، أو نُعت بالحرام دلّ على الكعبة. وقد عرف العرب بيوتاً منها ما بني على الدين الحق قبلة للناس، ومنها ما بني على الرأي الباطل فتنة للناس. ويرد في التنزيل: **﴿إنّ أوّل بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾**[4].

---

(١) سورة المائدة، آية ٩٧.
(٢) سورة الحج، آية ٢٩.
(٣) سورة البقرة، آية ١٢٥.
(٤) سورة آل عمران، آية ٩٦.

ويُروى أنّ آدم لما أهبط إلى الأرض في سرنديب في أرض الهند كان متحيّراً بين فقدان زوجته ووجدان توبته، حتى وافاها بجبل الرحمة من عرفات، وعرفها وصار إلى أرض مكة، ودعا إلى الله وتضرع إليه أن يأذن له في بناء بيت من الحجر والطين. وبعد أن ضربه طوفان نوح رفع إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل قواعدَ البيت يقول تعالى: ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل**﴾[1].

٣ ـ مسجد: ويدل على سجود المتعبدين وتواجدهم، ويكون مغلقاً أو في الفلاة، ويُحتمل أن يشتمل مسجد الجاهلية على قبلة.

٤ ـ الطاغوت: أخذ تسميات مختلفة منها البيت المقدس أو الصنم أو كل ما عُبد من دون الله. ويُعتقد أنه أحد آلهة قريش، وأنّ هبلاً هو المقصود بالطاغوت. وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في ثماني آيات مثل: ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمنْ يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى...**﴾[2]، أو مثل ﴿**والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى**﴾[3].

٥ ـ الصرح: وهو على شكل برج أو قصر مكوّن من بناء عال مرتفع في السماء. وقد روي أنّ كعباً بن سلمة الايادي اتخذ له صرحاً بالحزورة ـ سوق في مكة ـ يرقى إليه بسلم كي يتعبّد فيه فعرف بصاحب الصرح.

وإذا كان عرب الجاهلية استطاعوا أن يقيموا دوراً لأداء ديانتهم التي صنعوها لأنفسهم ليستنصروا بها على مظالم الحياة ونوائب الدهر، فإنهم عرفوا طرقاً محدّدة ومناسك منظمة لأداء العبادة وتنفيذ الفريضة. وربما لا نخرج عن الحقيقة إذا قلنا انّ الإنسان منذ أن اعتقد بوجود آلهة، ووضعها في بيوت مقدسة، اضطر إلى زيارتها في أوقات معينة، يمارس من خلالها معتقداته وتصوراته الكونية، ويُبدي احتفالات أو مراسيم وطقوساً تهدف إلى تكفير

---

(١) سورة البقرة، آية ١٢٧.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٥٦.

(٣) سورة الزمر، آية ١٧.

الذنوب وطاعة الخالق، وعُرفت بالحج ـ أحد أركان الإسلام الخمسة لاحقاً ـ.

فمثلاً كانت قريش تحجّ إلى مكة وتزور العزى وتهدى لها وتتشفّع عندها بالذبيحة والقربان، وكانت قضاعة ولخم وجذام وأهل الشام يحجّون إلى الأقيْصر وهو صنم ويحلقون رؤوسهم عنده.

وكانت فريضة الحج تتمّ عادة بعد الانتهاء من الأسواق التجارية الموسمية والمواسم الاقتصادية، في أوقات يسود فيها السلام، ويخيّم الأمن ويمنع القتل وهدر الدماء وسفك الأرواح، في أشهر الحرم، التي يضع الناس فيها أسلحتهم جانباً، ويدخلون إلى المناطق الحرام بسلام، يؤدّون مناسكهم الدينية من دون ذعر وخوف.

كذلك عُرف عن أهل الجاهلية، أنهم كانوا يطوفون بالحجارة ويدورون حول الأنصاب ويقدمون الهدايا، قرباناً للآلهة واستخارة في الأمور الخاصة من زواج وسفر، وفي الأمور العامة من تضرع واستسقاء واستنصار. وكان الطائفون بالكعبة يقولون «لبيك اللهم لبيك». بعضهم يطوف منتعلاً ثيابه، وبعضهم الآخر يخلع نعله وثيابه ويطوف بالبيت. وكان طواف الرجال في النهار وطواف النساء في الليل. وكان معروفاً أنّ سدنة الصنم أصبحوا المستفيدين من الهدايا، وأنّ ذبائح المعبد التي تحدثْ في مناسبات كريمةَ توزع لحومها على الموجودين من الفقراء، الذين يتجهون إلى بيوت الأصنام طلباً للحاجة.

أما العمرة التي قال فيها الرسول ﷺ «العمرة إلى العمرة كفّارة لما بينهما»[1]، فقد ذكرها الإخباريون بمعنى الطواف بالكعبة في شهر رجب، وبالأحرى هي الطواف بالبيت بين الصفا والمروة. وكان الطائفون يذبحون فيها الشاة ويحلقون رؤوسهم ويلبسون ثياب الإحرام ـ الثياب غير المخيطة ـ ويضعون على أجسادهم لحاء شجر الحرم.

---

(١) النووي: نزهة المتقين، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٦ جـ ٢ ص ٨٩٥.

ديانات التوحيد:

انتشرت ديانات التوحيد السماوية في الجزيرة العربية إلى جانب العبادات والمعتقدات الوثنية. فعُرفت اليهودية في المناطق الصالحة للزراعة والصناعة كوادي القرى وتيماء ويثرب وفدك، وفي المواقع الهامة وعند طرق المواصلات والتجارة البحرية والبرية. وانحصر عملهم في الزراعة وفي بعض الصناعات والأعمال التجارية والمصرفية، التي جعلت لهم نفوذاً عند رؤساء القبائل، وشأناً عند ملوك الدول المجاورة وأمرائها، وخلقت لهم خصومة وأعداء بسبب غلّوهم في الفائدة وجشعهم في أخذ الربا، وحصولهم على ثروات ضخمة وغنى فاحش، بطرق ملتوية ووسائل يأنف العربي القيام بها، لاعتقاده أنها تتنافى مع عادته العربية ومروءته الإنسانية.

ويبدو أنّ المناطق المتهوّدة أثرت في عادات بعض العرب، الذين أخذوا عنها بعض الطقوس الدينية، كالختان واعتزال النساء في الحيض وبعض المعلومات التاريخية والأخبار القصصية، وتميّزت ببناء الآطام المحصّنة بالحجارة، حتى يأمنوا غارات القبائل العربية، ويتّقوا هجماتها التي اضطرت اليهود إلى دفع أتاوات وتقديم هدايا، أو إلى الحيلة والمكيدة والتفريق بين القبائل العربية وإضعاف حلفها والتقليل من خطرها.

ونعتقد أنّ نشأة اليهودية اختصّت بعصبية قومية ضيّقة، وأن نشر الأساطير اليهودية القديمة وبعثها من جديد، لدواع معيّنة ومنطلقات محدّدة، جاء ليبرّر حقدهم العرقي، وتمايزهم العنصري وتفوقهم الجنسي، وتبجّحهم بالعظمة التاريخية والمكانة الاجتماعية. وقد تحدث المؤرخون عن أسباب قدوم اليهود إلى منطقة الحجاز فذكروا أنّ إقامتهم تعود إلى عهد نبوخذ نصر الكلداني حين دخل فلسطين، وسبى أهلها الذين هربوا إلى بابل ووادي القرى، ورأى بعضهم أنّ نزوح اليهود إلى يثرب وأعالي الحجاز حصل بعد غزو الروم لفلسطين وفتكهم باليهود العبرانيين.

عُرف من اليهود المهاجرين إلى يثرب بنو قريظة وبنو النضير، الذين ظلوا أصحاب يثرب وسادتها، حتى جاء الأوس والخزرج فقهروهم وفتّتوا

ثرواتهم الزراعية والمالية، بقيادة سيد الخزرج مالك بن العجلان الذي استعان بأبي جبلة الغساني وكسر شوكتهم، فأصابهم العزل والانزواء وتفرّقوا بين بطون الأوس والخزرج. وهاجر طائفة من اليهود إلى خيبر وواحاته الفنية وعُرفوا بيهود خيبر، بعد خراب الهيكل، واستقروا في سائر الحجاز في مناطق غزيرة المياه، ومشهورة بزراعة النخيل والحبوب، وعَرَف يهود تيماء الجميلة والمميّزة بموقعها التجاري، كيف يستغلون أرضها في الزراعة، ويستخدمون مياه واحاتها العذبة في حفر الآبار وإقامة الحصون القوية، التي كان من أشهرها حصن السموأل المعروف بالأبلق الذي تناقلت كتب الأدب والتاريخ أخباره.

ويبدو أنّ انتشار الطائفة اليهودية في منطقة الحجاز وما جاورها، لم يؤثر في حياة أبناء المنطقة العربية، ولم يغيّر من نمط عاداتهم ونهج حياتهم، بل على العكس فقد امتعض العربي من اليهودية، التي لم تتوافق أحكامها مع ما عهدته حياة العربي وطقوسه، عندما خالفت مثلاً مبدأ الانتفاع بغنائم الأعداء، وأوجبت إحراقها، وعارضت وسيلة عيشه وطريقة عمله، عندما تعاطى أصحابها الأعمال الحرفية والمهنية والصناعية، في حين أنّ العربي آنذاك كان يقاتل ليثأر لنفسه، وينتفع بالمال والأسرى، وأنه كان يأنف من أعمالهم ويحتقر مَنْ يعمل بها.

وهذا ما جعل أثر اليهودية عند العرب ضعيفاً، سواء من الناحية النظرية العقيدية حيث لم ينجحوا في نشر دعوتهم وذيوع تعاليمهم، أو من الناحية العملية، حيث انصرفوا إلى الثراء غير المشروع، عن طريق الربا الفاحش وأثرتهم التي لا تعرف نبلاً وتضحية.

أما المسيحية فقد انتشرت في معظم المناطق العربية، جنباً إلى جنب مع المعتقدات الوثنية في الشام واليمن ونجران والحيرة، وجاءت جزيرةَ العرب من بلاد الشام وسيناء. وكانت أشهر القبائل العربية التي دخلتها النصرانية هي قبيلة تغلب وطي وبعض عرب الحجاز، التي أثرت النصرانية فيها، وعكست بعض مفاهيمها كفكرة الشفاعة والرهبنة.

وعُرفت النصرانية في يثرب ومكة التي وفد إليها أحباش اليمن وملأوا شعابها، وانتشروا في أحيائها، ونصّروا أبناءها. وعرف غساسنة الشام النصرانية، واعتنقوا المذهب اليعقوبي الذي نادى صاحبه بالطبيعة الواحدة للمسيح، وذهب إلى القسطنطينية لحمل الكنيسة على الكفّ عن مضايقة أتباعه، والتوقف عن اضطهادهم وملاحقتهم. كما اعتنق ملوك الحيرة وأبناؤها المذهب النسطوري الذي يرى أنّ للمسيح طبيعتين الإنسان يسوع والله الكلمة، وأنّ مريم ولدت إنساناً اكتسب الألوهية من جهة أبيه.

وتُعدّ نجران من أشهر المدن النصرانية، خاصة بعد بناء كنيستها التي عرفت بكعبة نجران، تشبّهاً بالكعبة المكرمة ذات المكانة الرفيعة عند العرب، والتي أريد لها أن تكون محلّ الكعبة، وأن تصرف العرب عن التوجه إلى مكة وتحولهم إلى كعبتها، لكنّ الله حمى بيته الأمين وأرسل على جيشها طيراً أبابيل رمتهم بحجارة من سجيل فارتدوا خائبين.

يتبيّن من ذلك كله أنّ عرب الجاهلية عرفوا الديانات السماوية والمعتقدات الوثنية، ومارسوا المناسك الجاهلية والطقوس القديمة، وأدرك بعضهم الحقيقة الربانية، وعملوا بمقتضى أحكام تعاليمها، ومهّدوا الطريق للرسالة النبوية الشريفة، التي انبعثت من قلب الجزيرة لنشر رسالة السماء وهداية البشرية كافة.

الفصل الثامن

أسواق العرب ودورها التجاري في العصر الجاهلي

أ ـ التجارة العربية وأنواع البيوع الجاهلية

ب ـ مناعة الأسواق وحماية طرقها

ج ـ نشأة الأسواق ودورها الحضاري

أسواق العرب ودورها التجاري في العصر الجاهلي

استفاد العرب من موقع بلادهم الاستراتيجي التجاري والحضاري، فأقاموا علاقات واسعة مع دول العالم، حركت عجلة التجارة وبلورت المصلحة الاقتصادية، وسنّت نهجاً أدبياً وسياسة اجتماعية منفتحة.

وكانت جزيرتهم العربية طريقاً تجارياً بين عالمي الشرق والغرب، ومعبراً طبيعياً لقوافل التجارة البرية والبحرية، التي عدّت مورداً اقتصادياً هاماً في حياة العرب الاقتصادية.

إنّ سيطرة العرب على البحر الأحمر وقيام مدن وثغور تجارية كمكة وينبع، جعلت التجارة العربية تنافس التجارة الرومانية. وانّ نشاط الدول العربية الجنوبية، وسيطرتها على طريق تجارة البخور الذي كان يخترق ظفار ومأرب، كان من أهم الأسباب التي دفعت الأمبراطورية الرومانية والأحباش والساسانيين إلى محاولة غزو اليمن وحضرموت والحجاز.

التجارة العربية وأنواع البيوع الجاهلية:

أقامت الجزيرة العربية تجارة هامة مع بلاد فارس وتبادلت البضائع معها، فوفد كبار تجار مكة على المدائن واتصلوا بديوان كسرى، وأقام تجار قريش ـ سادة التجارة العربية ـ صلات تجارية وثيقة مع الدول المجاورة، وخرج أولاد عبد مناف في سفارات إلى الروم واليمن والحبشة، فوثقوا العهود التجارية. وقصد عبد الله بن جدعان ـ أعظم أغنياء مكة ـ كسرى في أمور تجارية، وسار أبو سفيان بن حرب ـ أحد كبار تجار مكة ـ في تجارته

إلى فارس والشام وذهب إلى كسرى واهداه، فيلاً عربياً.

وكان للعرب علاقات تجارية ببلاد الهند والصين وأفريقيا، اتصلوا ببلاد الهند بثلاث طرق أساسية، إحداها برية تصل أهم مراكز الشرق كسمرقند ودمشق وبغداد بالهند بواسطة القوافل، واثنتان بحريتان عبر مرافىء الخليج العربي. وكانت السلع التي تصل إلى الخليج الفارسي ترسل إلى بغداد ومنها إلى جميع المدن المجاورة، والسلع التي تنزل في عدن ترسل إلى السويس والإسكندرية ومدن سورية الساحلية.

وكان العرب ينقلون ما تنتجه الجزيرة العربية من الطيوب والبخور والتوابل والعطور والأفاوية والحجارة الكريمة، ويصدرون منتوجاتها كالمشمش والتين والفول واللبن في قوافلهم التجارية. وقد صدق الجغرافي اليوناني أسطرابون المتوفي عام ٢٥م في وصف العرب بأنهم تجار وسماسرة وأهل بيع وشراء، وليسوا أمة حرب لا في البر ولا في البحر[١]، أحاطوا طريق القوافل بكثير من العناية فنظموها وأمنوا لها الحماية، وقضوا على مشكلة طول الطريق بإقامة محطات تجارية وأسواق موسمية، والتزموا حماية قوافل التجارة لدى مرورها في الجزيرة، وأخذوا بالمقابل جعلاً ومكوساً معينة[٢].

عرفت بلاد العرب التجارة منذ القدم، وشغلت بلاد تدمر واليمن مكانة ممتازة في تجارة الشرق، وأصبحت تدمر محطّ قوافل الدول العربية والأجنبية، وقبلة التجارة في بلاد العالم، فازدهرت منطقتها واشتهرت أسواقها، وحمل أبناؤها صادرات العرب والهند إلى مصر وجنوبي أوروبا، فتسابقت الدول الكبرى إلى استرضائها، وهابتها روما التي أخضعت العالم القديم لنفوذها، وتودّدت إليها وقدّمت لها الهدايا، واستفادت تدمر من منافسة الفرس والرومان، واستثمرت هذا الصراع لمصالحها التجارية. واشتهرت سبأ بوفرة ثروتها وغزارة خيراتها، واعتبرت أغنى بلاد العرب وأوسعها تجارة. حمل أبناؤها بضائع الحبشة والهند إلى مصر والشام

(١) سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر بيروت ط ثانية ١٩٦٠ ص ١٧.
(٢) عرفان حمور: أسواق العرب ص ٢٠.

والعراق، واستخدموا أهل الحجاز في نقل التجارة إلى الجزيرة، وأصبح في الحجاز أكثر من مركز تجاري، فأنشئت فيه محطتان تجاريتان. الأولى في المدينة والثانية في مكة التي أصبحت سيدة التجارة في الجزيرة، بعد أن تحكمت اليمن بهذا المورد الاقتصادي، ونقلت غلال حضرموت وظفار ومنتوجات الهند إلى شمالي الجزيرة وجنوبي أوروبا.

وقد وصف المسعودي أرض سبأ بقوله «كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأكثرها جناناً وغيطاناً، وأفسحها مروجاً، بين بنيان وجسر مقيم، وشجر موصوف، ومساكب للماء متكاثفة وأنهار متفرقة...»[1].

ويبدو أنّ أهل مكة قد استعملوا عملتيْ الذهب والفضة ـ البيزنطية والفارسية ـ، ونشطت قريش المكية في معاملاتها التجارية، وأضحت قبلة صعاليك العرب الذين يفدون إليها، وينفقون الأموال الطائلة في حوانيت المدينة، وألّفت قوة عسكرية لخفارة المدينة وحماية أبنائها، الذين أصبح لهم قواعد نظامية وأصولاً شكلت عرفاً تجارياً، وجعلت أحد الباحثين المعاصرين يرى فيها ما يمكن تسميته بالقانون التجاري[2]، لأنّ قريشاً عقدت عدداً من المعاهدات والاتفاقات مع الأمبراطورية البيزنطية في مدينة بيزنطة، ومع الأمبراطورية الفارسية في مدينة طيسفون التي عرفت في العصر الإسلامي بالمدائن، ولأنّ زعماءها عرفوا تجارة واسعة قبيل الإسلام، ثلاثة من الخلفاء الراشدين كانوا تجاراً، اشتهروا بالبيع والشراء وإقامة الصفقات الرابحة والخاسرة.

وقد عرفت أسواق العرب في الجاهلية كثيراً من السلع المحلية والأجنبية، فتاجر أبناؤها بالحيوان والإنسان، وباعوا الإبل وأنواع الماشية، واشتروا الرقيق في سوق عكاظ وأسواق مكة، واشتهر قوم باسم النخاسين الذين يأتون بالرقيق من الحبشة وبلاد أفريقيا ويبيعونه بربح وفير.

---

(١) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية ص ١٥٤.

(٢) لطفي عبد الوهاب يحي: العرب في العصور القديمة ص ٣١٣.

ويلاحظ أنّ عرب الجاهلية اتبعوا أنواعاً من المبيع، وأن معظمها شبيه بعملية المقامرة، التي أبطلت في الإسلام، وأنهم سمّوا البيع صفقة بسبب تصافقهم بالأيدي تثبيتاً لعقد البيع. وأنّ هذا الأسلوب ظلّ معمولاً به في الإسلام، ويذكر آدم متز أنّ الشراء والبيع كانا يتمّان بالمقابضة، بأن يضع أحد المتبايعين يمينه في يمين الآخر، فإذا قال البائع بعت وقال الشاري اشتريت، ترك كل يد صاحبه وانتهى الأمر[1]. وقد ربط بعض النقاد بين هذا النوع من المبيع وما عُرف عن زواج المهر عند العرب، حين كان وكيلا العروسين يقبضان يد بعضهما، ويعلنان موافقتهما على الزواج بمهر محدّد، إلاّ أنّ العرب ألفوا أنماطاً خاصة من البيع، أثارت الدهشة والاستغراب لأنّ أكثرها يلحق الغبن بالمشتري والبائع، ومن أهم بيوع الجاهلية:

١ - بيع الحصاة: ويتم برمي حصاة على نوع من الألبسة والأطعمة، أو على أية سلعة أرضاً كانت أو غنماً. وقد أبطل الإسلام هذه البيوع، وعدّها فاسدة لضررها وجهالتها.

٢ - بيع الملامسة: ويتمّ بأن يكون اللمس شرطاً وافياً، وأضاف بعضهم إلى الملامسة عنصر الإيماء والهمهمة. وقد شابه هذا النوع بيع الحصاة فأبطله الإسلام ونهى عنه.

٣ - بيع النجش: ويكون بغش المشتري وانخداعه بالبائع المتواطىء مع الوسيط، الذي لحنكته الكلامية ودرايته بطريقة إقناع الزبائن، كان يوهم الشاري بأوصاف غير صحيحة للسلعة ومبالغ بها، ويحثه على دفع مبلغ أكثر مما تستحق. أو يتفق مع البائع على سعر متدن لسلعة يبخسها قيمتها بهدف بيع سلعة أخرى، ويكون نصيبه بالطبع مبلغاً من المال.

٤ - بيع الزرع: وقد أخذ هذا النوع أربعة أبعاد. المزابنة ويكون ببيع مجهول بقدر معلوم، وأحياناً ببيع شيء معلوم بمجهول من جنسه، لا يُعرف

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧ جـ ٢ ص ٣٨٩.

كيله ولا وزنه. ويقتصر هذا النوع من البيع على النخل حيث يبيع الرجل التمر الموجود في رؤوس النخل بتمر مقطوف. والمخاضرة وهي مشابهة للمزاينة مع فارق أنها تقع على الثمار قبل أن يبدو صلاحها. والمعاومة أو بيع السنين وتكون ببيع زرع المحصول للعام التالي أو الذي يليه، والظني ويكون ببيع التمر بالكومة التي لا يُعرف كيلها.

يتبيّن من ذلك أنّ عرب الجاهلية قد عملوا على تنشيط الحركة الاقتصادية وتقدم المنطقة حضارياً، بعد أن تمكن أبناؤها من حماية أسواقها من هجمات البدو وعدوان أصحاب الثارات الفردية والمآرب الشخصية، ووفّروا عنصري الأمن والطمأنينة أثناء انعقاد الأسواق التجارية، ونقلوا علوم الأمم المتمدنة وعادات شعوبها العريقة، التي جعلتهم أصحاب ثقافة واسعة وإدراك عقلي كبير، واطلاع عظيم على آداب التجارة وأنظمتها الاقتصادية.

مناعة الأسواق وحماية طرقها:

إنّ اهتمام العرب بالتجارة وإدراكهم أهمية توفير الأمن المطلوب لتنشيط حركة الأسواق وتفعيل مواسمها، اضطر العرب إلى تأمين مناخات الراحة ووسائل الاستقرار، من خلال حماية أسواقهم بثلاث طرق.

الأولى: حماية طبيعية عندما أقام العرب أسواقهم في حصون منيعة وأسوار قوية، لصد العدوان ومنع الاعتداء، مثل حصن مارد القديم الذي كان يُحيط بسوق دومة الجندل، وحصن الأبلق في تيماء الذي ورثه السموأل عن جده، واحتفر فيه بئراً عذبة، وأقام فيه العرب سوقاً، أو عندما أقام العرب هذه الأسواق في المرتفعات العالية والقمم الشامخة، التي يصعب مداهمتها والسطو عليها، ولا يقصدها المرء إلاّ بخفارة، لبعدها وانقطاعها، مثل سوق الشحر الواقعة جنوبي الجزيرة العربية بين عدن وعمان، والتي ذُكر أنّ موضعها كان تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود[1]، واشتهرت منذ القديم بعنبرها الذي لا نظير له والذي ضرب به المثل.

---

(١) سعيد الأفغاني: أسواق العرب ص ٢٦٧.

الثانية: حماية بشرية وتمثلت بقيام عناصر من الخفر مأجورة ومتطوّعة، دافعت عن حرمة الأسواق ومنعت الاعتداء على مواسمها التجارية. وعُرفت هذه العناصر باسم الذادة المحرمين، لأنهم وقفوا أنفسهم على نصرة المظلوم والذود عن المكان، ومنع سفك الدماء وارتكاب المنكر، وألزموا الجميع برعاية المحرمات وعدم حمل السلاح، حفاظاً على حرمة الأماكن المقدسة، واحتراماً لأشهر الحرم الأربعة: رجب ذي القعدة ذي الحجة ومحرم. فأوقفوا المعتدين عند حدّهم، وكفّوا أيديهم عن حرمات الناس، ودعوا بالمقابل إلى حقن الدماء ونبذ العنف، والدعوة إلى الصلح والسلام، واعتبروا أنه من العار أن تنتهك أعراف مكة وحرمات أراضيها المقدسة، وسمّوا حروب قريش وهوازن في موسم عكاظ بحروب الفجار، لاقتتال قبائلها في الشهر الحرام، الذي يحظّر فيه سفك الدماء، حتى لو لقي المرء قاتل أبيه أو أخيه، فليس بوسعه أن يتعرض له بسوء أو ينتقم منه[1]. وقد حارب العرب مَنْ أسموهم بالمحلّين الذين لا يحفظون للمكان حرمة، والذين يرتكبون المنكرات في الحج ويستحلّون المظالم.

لكنّ حنكة العرب ودرايتهم في توفير الظروف المناسبة، وتأمين الأجواء الملائمة، جعلتهم يختارون أزمنة هذه الأسواق ويحدّدون أوقاتها، التي أقيم معظمها في الأشهر الحرم، التي قضت الحكمة فيها أن لا تكون متتالية ـ ثلاثة متتالية وشهر مفرد يأتي بعد ستة أشهر ـ ليساعد على وقف الحرب وكسر حدة العدوان وإتاحة الفرص لدعاة الصلح وأصحاب السلام.

ولعلّ قيام حلف الفضول في قريش كان نتيجة هذا المنطق، الذي أوجد أتباعاً عرفوا بالذادة، الذين تحالفوا على ألاّ يُظلم رجل في مكة إلا منعوه وأعادوا له حقه، وكانوا جميعاً على الظالم[2].

وهذا ما دفع قريش إلى أن تستأجر بعض البدو وعدداً من فتّاك العرب، الذين خلعتهم قبائلهم، وتبرّأت من جرائر أعمالهم، لتضمن الدفاع

---

(١) عرفان حمور: أسواق العرب ص ٦٥.

(٢) علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ص ١٠٧.

عن مصالحها التجارية والاقتصادية في أسواق مكة الداخلية[1].

الثالثة: حماية معنوية وتجسدت في الرادع الديني الذي كان يُضفي قدسية على الأسواق، التي كانت في الأصل مكان عبادة، تحجّ القبائل إلى أصنامها وأنصابها، في مواسم معينة، تحولت مع الوقت إلى أسواق للبيع والشراء وتبادل السلع. فمثلاً سوق دُومَة الجَنْدَل كان فيها صنم ود، وسوق المُشَقّر كان فيها صنم ذي اللب، وسوق بدر كانت من المواضع المقدسة التي فيها أنصاب يتقرّب إليها الناس، وسوق عكاظ كانت فيها أصنام وأنصاب، تنحر عندها الأضاحي وتطوف بها العرب.

نشأة الأسواق ودورها الحضاري:

تعدّدت أدوار أسواق العرب في الجاهلية، وتنوّعت مهام أنشطتها، فاحتفت بحركة المجتمع الأدبية والثقافية، وصوّرت حالة البلاد الاجتماعية، وعكست أوضاعها الاقتصادية ومواقفها السياسية. وكانت مراكز استقطبت أبناء العربية لعقد الصفقات التجارية وإقامة التحالفات القبلية، والتعرف إلى المعتقدات الوثنية والديانات السماوية ونشر دعوتها وترويج تعاليمها. فضلاً عن أنها مركز تجمّع للتشاور في مشكلات الحياة ومعضلاتها المزمنة، ومعرض للبلاغة ومدرسة لإلقاء الشعر والخطب التي راجت في سوق عكاظ خاصة، حيث كانت تقام المهرجانات وتُعقد المنافرات والمفاخرات، وتُذاع أشهر القصائد التي تنال الحظوة، وتُكتب على نسائج ثمينة وتعلّق على الكعبة.

ويُقال انه في عكاظ اختيرت المعلقات السبع، وانّ العرب علّقوها بأستار الكعبة، إعجاباً بها وإكباراً لقدرها. وذكر بعضهم أنه في عكاظ - التي كانت بمثابة منابر في الجاهلية - تُلقى الخطب وتعدّد الفعال والمآثر، وتُذكر أيام القوم من عام إلى عام[2]، وأنّ السليقة اللغوية وذوقها الأدبي حمل

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج:٦ ص ٣٨٢.

(٢) عمر أبو النصر: قصة العرب قبل الإسلام ص ١٠٠.

الشعراء على تجويد قصائدهم وتنقية ألفاظهم واختيار معانيهم، وتنقيحها من الشوائب والأشكال التي تؤذي الأذن العربية، وبالتالي فإنّ هذه السوق أثرت في اللغة العربية، وتمكنت من انتقاء الألفاظ الفصيحة، لاسيما القرشية منها، فوحدت لغتها ومنحتها قوة بلاغية وبيانية، عُقدت عليها الآمال، فذبلت اللهجات القبلية والعادات التي نشأت في حياة العزلة القبلية، ونمت العادات العربية الواحدة والتقاليد المشتركة، ومارست من ثمّ قريش نوعاً من السلطة السياسية على مختلف القبائل العربية[1].

أصبحت سوق عكاظ منتدى أدبياً لإلقاء الخطب، ومنبراً لوعظ الرهبان والحكماء، الذين يردون السوق فيعظون ويبشرون بيوم الحساب والجنة والنار، ناهيك عن الخطباء أمثال قس بن ساعدة الايادي وأمية بن أبي الصلت. ويروى أنّ الرسول ﷺ كان يخرج في مواسم الأسواق، ويوافي القبائل مجتمعة ليعرض الإسلام على الناس، ويدعوها إلى الإيمان برسالته وتصديق تعاليمه، وأنّ رجالات القبيلة وأسيادها كانوا يصرفون شؤون قبيلتهم في الأسواق ويتدبّرون أوضاعها الداخلية، وأنّ القبيلة نفسها كثيراً ما كانت تلجأ إلى هذه الأسواق لتعلن حلفاً وميثاقاً، أو لتوضح قضية التبس وضعها، أو ليفصل أحدُ الحكام في خصومات معينة ـ فردية وجماعية ـ أو ليخلع أحد أفراد القبيلة، وينشر تبرئتها من مغبّة جرائر أعماله، مثلما فعلت قبيلة خزاعة، عندما خلعت قيساً بن منقذ في سوق عكاظ وشهدت على نفسها بذلك غير محتملة له جريرة[2].

رفدت هذه الأسواق المنطقة العربية بفوائد مادية، حيث وضعت ضريبة على السلعة المباعة، وعُرف أن جُباة من غساسنة الروم ومناذرة الفرس جمعوا ثروة مالية من الإبل والغنم، وأنّ سادات العرب وزعماءها راحوا يتنافسون في طلب ودّ الملوك ويجزلون لهم العطايا، ويدفعون لشريف البلد، الذي يقوم فيه السوق سهماً من الأرباح والخفارات، حتى يفوزوا بحق

(١) محمد عمارة: فجر اليقظة القومية، دار الوحدة بيروت ١٩٨٤ ص ٣٨.

(٢) عمر أو النصر: قصة العرب قبل الإسلام ص ٩٩.

الإشراف على السوق ويستأثروا بجمع المكوس واحتكار الخفارات.

وقد أقيمت أسواق الجاهلية في أوقات موسمية معينة وأماكن محدّدة من الجزيرة العربية، اقتصرت سوقها الخاصة على القرى المجاورة مثل سوق هجر، وأمّت السوق العامة الأجناس البشرية المتواجدة في الجزيرة العربية وأطرافها كلها، مثل سوق عكاظ التي اهتمّ المؤرخون بأمثالها، وأهملوا الحديث عن المحلية منها والصغيرة.

اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ قيام هذه الأسواق وعدد أيامها، وأشاروا إلى أنّ العرب لم يلتزموا يوماً معيناً لافتتاح هذه الأسواق، وقالوا انّ سوق عكاظ مثلاً كانت تنعقد في مطلع ذي القعدة أو في منتصفه، وبيّنوا أنّ معظمها يُقام في الأشهر الحرم، كأسواق مجنّة وذي المجاز التي وقعت في أيام الحج.

كان الباعث الرئيس لقيام هذه الأسواق ونشأتها العنصر التجاري وعمليات البيع والشراء وتبادل السلع الاقتصادية التي خص الله الأقاليم بها ومنعها عن غيرها، لكنه تطور إثر الاتصال بحضارة البلدان الأجنبية واطلاعه على ثقافتها، وأصبح الهدف أشبه بالمجامع العامة التي تمثلت فيها أنشطة شعوب المنطقة والقطاعات الانتاجية كافة، والتي أقبل عليها العرب والأعاجم وتاجروا بالسلع الاقتصادية والمحاصيل الزراعية. فمثلاً كان تجار فارس يردون سوق المشقر، ويتاجرون مع أهل البادية، وكان تجار الهند والصين والسند يتصدرون سوق دبي على الخليج العربي، ويتقايضون بيوع العرب بمنتوجات بلادهم.

ويلاحظ أنّ أسواق العرب انتشرت في منطقتي الحجاز ونجد، وأن سوق عكاظ القريبة من مكة كانت أكثرها شهرة وأهمية، وأنها حسب سعيد الأفغاني وكتابه أسواق العرب قد صنّفت إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: كان خاضعاً لنفوذ الدول الأجنبية التي أدارته بنظم خاصة بها، وبعمال عرب يعيّنون من قبل ولاة الفرس في الحيرة وهجر وعمان، أو من قبل ولاة الروم في بصرى وأذرعات. وتعتبر الصيغة العربية في مثل هذه

الأسواق ضعيفة، نظراً للسيطرة الأجنبية والتوجهات الإدارية الغريبة.

وكانت منطقة هجر وسوقها من أخصب بلاد العرب وأكثرها رخاء. اشتهرت بتجارة التمر وعُرفت به، ويقال انّ بثينة أتحفت رسول جميل بتمر من هجر، وانّ أعرابياً سئل من قبل عبد الملك عن أطيب من طعامه، فأجابه نعم، وكان يقصد تمر هجر[١]. واشتملت سوق عُمان على نخل وزروع وفواكه، وكانت في جنوب الخليج الفارسي، نزلها الأزد عند انتهائهم من سوق هجر، وقصدها العرب لتجارتها الكثيرة وسلعها الوافرة وذخائرها المتنوعة، وطمعت بها فارس فسيطرت عليها وولت عليها الحكام[٢].

أما بُصرى ـ عاصمة حوران وإحدى كبريات مدن الشام ـ فتردّد اسم سوقها في كثير من أشعار العرب، وكانت محطّ رحال تجار العرب الذين وفدوا إليها بحاصلات الحبشة والهند واليمن، وعدّت سوقاً عامة للقوافل الآتية من جزيرة العرب، وقلعة الرومان في وجه البادية يصدون منها ما تتعرض إليه الشام من هجمات القبائل.

ويُعتقد أنّ سوقها امتدت طويلاً قيل خمس وعشرون ليلة، واشتهرت ببضاعة الخمر، التي حرص التاجر على اقتنائها واصطحابها معه في تنقلاته مفاخراً بها[٣]، وبالسيوف المشرفية المنسوبة إليها.

وقد قصدها القرشيون وعرفوا أسواقها. ويُروى أنّ الرسول سافر بنفسه إليها في رحلتين، الأولى وهو طفل، والثانية وهو تاجر ابن خمس وعشرين سنة، وأنه اجتمع في رحلته الثانية إلى الراهب بحيرى في دير هناك[٣]، وأن أبا بكر الصديق كان يخرج في تجارة إليها.

بيد أنّ أذرعات التي تعرف اليوم باسم درعا، والتي قامت خلال فصل الصيف بعد انتهاء سوق بُصرى بسبعين ليلة، واستمرت أياماً طويلة، فقد

---

(١) علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ص ٣٩٧.
(٢) سعيد الأفغاني: أسواق العرب ص ٢٤٥.
(٣) عرفان حمور: أسواق العرب ص ١٩٧.

امتدح الشعراء خمرها وافتتنوا بشربها، وشابهوها في الأهمية بمدينة بصرى.

النوع الثاني: أنشأه العرب في البدء بدافع الحاجة، ثم أصبح مع الزمن مثلاً لهم في أوجه الحياة المختلفة الاجتماعية منها والاقتصادية، الأدبية والتجارية، حتى صرنا نتعرف إلى أحوال العرب ـ عاداتهم وتقاليدهم ومعاملاتهم ـ من خلال أسواق هذا النوع التي أقيمت بعيدة عن أثر النفوذ الأجنبي، كسوق عكاظ الواقعة في الجنوب الشرقي من مكة، والتي تعدّ حدثاً فريداً من نوعه في تاريخ عرب الجاهلية، لأنها ابتدأت سوقاً تجارية ومجمعاً أدبياً وفكرياً، ثم تطورت فشملت الحياة العربية كافة.

ويبدو أنّ الوفود العربية التي وردت هذه السوق انتبذت مكاناً خاصاً بها، فتجار اليمن أخذوا مكاناً عرضوا فيه تجارة البرود اليمنية ـ ثياب مخططة وموشاة ـ والعقيق والتوابل والطيوب والبخور، وتجار الخليج بهروا أنظار المشترين بأصناف اللؤلؤ والتمور، وتجار الشام عرضوا ما لديهم من زيوت ودقيق وأوان زجاجية ومنسوجات حريرية، وأعراب البادية تاجروا بالماشية الحيوانية ـ إبل وأغنام ـ وبثروتها الانتاجية ـ صوف ووبر ـ وأن بلداناً أقامت معرضاً للسلاح واشتهرت بصنعه مثل الرماح الخطية ـ نسبة إلى بلدة الخط ـ وهي مرفأ على ساحل البحرين، والرماح الردينية ـ نسبة إلى ردينة ـ وهي قرية على شط البحر، وقيل انها امرأة اشتهرت بتقويم السلاح في البحرين، وأن بعض البلدان أقامت معرضاً للخمور المستوردة من بلدان اختصت بصنعها، ومدناً اشتهرت بجودتها مثل بصرى وغزة وأذرعات والأندرين ـ قرية بالشام جنوب حلب ـ وأنّ النعمان بن المنذر أثناء حكمه في بلاد الحيرة كان يجهّز كلّ عام لطيمة ـ قافلة من التجارة ـ لتباع في سوق عكاظ[1].

النوع الثالث: لم يأخذ صيغة معينة وإن كانت الصفة العربية قد ضعفت، وأنّ أسواق هذا النوع وقعت على البحر كسوق دومة الجندل التي عُرفت بلدتها بين الشام والخليج العربي، واستمرت من أول ربيع الأول حتى

---

(١) عمر أبو النصر: قصة العرب قبل الإسلام ص ٩٧.

منتصفه، وهي من أسواق العرب الكبرى التي احتشد فيها القادمون من أطراف الشام والعراق وسائر الجزيرة العربية. وكانت تجارتها الرابحة وما درّته من فوائد، من الأسباب المغرية التي دفعت التجار إلى القدوم إليها، رغم وعورة الطريق وخطورة مسالكها وفقدان أمنها. وكسوق المُشَقَّر التي وقعت على البحرين وقرب هَجَر. وكانت في الأصل حصناً وثيق البنيان، أهله من قبيلة أزد اليمنية، استمرت سوقها من مطلع جمادى الثانية إلى آخر الشهر منه، وارتادها أخلاط من جميع أحياء العرب ومناطق فارس. وافتقرت طرقاتها إلى الحماية والأمن، وكان مَنْ يقصدها لا يستغني عن حراسة تحميه من أخطار الغزاة واللصوص، وكان كسرى ذا نفوذ على سوقها شأن سوق هَجَر وعُمان، يُقيمها ويُعطلها بناء لرغبته وحسب مشيئته.

خاتمة

إنّ الدارس لتاريخ عرب الجاهلية والمتأمل في حضارتهم يرى أهمية الجزيرة العربية على الصعد كافة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وعلى مختلف البلدان آنذاك. فقد احتلت الجزيرة في العصر الجاهلي مركزاً مرموقاً في السياسة الدولية، وأقامت تجارتها علاقات مع مختلف دول العالم، واستطاعت بوسائلها الخاصة أن تؤمن أجواء ملائمة وظروفاً مناسبة لتنشيط عملها وخدمة مصالحها، وتمكنت من أن تأخذ دوراً ريادياً لا يختلف عن المركز الذي تحتله البلاد العربية اليوم، سواء من موقعها الجغرافي المتميّز، أو من ثروتها البترولية وقدراتها الانتاجية.

إنّ النظرة الموضوعية لطبيعة الحياة في الجاهلية تظهر أنّ أبناء الجزيرة العربية عاشوا حياة متنوعة، فيها البداوة والحضارة، البؤس والحرمان، والرخاء والبحبوحة، والرقي والتقدم، ولم يكونوا إطلاقاً كما يحلو لبعض المغرضين أن يدّعوا أنّ العرب قبائل متوحشة، تعيش على النهب والسلب والقتل. فقد عرفنا فيها أصنافاً بشرية عدة، فيها الفقير والغني، البائس والتاجر الناجح، ألفوا مجتمعا مختلطاً، ساده الرخاء والثراء، وأن دولاً عربية غنية ومتحضرة مثل الغساسنة في سورية واللخميين في الحيرة نمت وازدهرت قبل قرون من ظهور الإسلام.

إن دراسة حضارة عرب الجاهلية تعطي صورة حية عن أمة اختصت بمزايا خلقية وصفات اجتماعية ومبادىء إنسانية، قلّ مثيلها في العالم. ولعلني لا أبالغ أنها الأمة الوحيدة التي اتسمت بمثل هذه المقوّمات العالية،

وتميّزت بمناقبية خلقية، تفرّدت بها عن باقي أمم الأرض، لعلها من الأسباب الرئيسة التي اصطفاها الله جلّ شأنه، وجعل انبياءه المرسلين من محيطها وأبناء أرضها، الذين أخذوا الكثير من قيمها الخالدة أمثال الكرامة والعفة والعهد والجوار. . . والذين انطلقوا في دعوتهم يبشرون بالمنطلقات السامية والمبادىء الإنسانية أمثال الحرية والعدالة. . .

إذا كان القدر أو الحكمة الإلهية قد جعلت في متناول إنسان عرب الجاهلية هذه المواقف والمنطلقات، التي يصلح بعضها لكل زمان ومكان، والتي تجعلنا نقف حيالها اليوم في القرن العشرين ونحن نرثي لحالنا، ونتحسر على أوضاعنا، ونرأف بجتمعاتنا، فإننا نكبّر ولا شك في ابن البادية وقفات الاباء والشموخ، يوم رفض أن يخضع لمستكبر، وحال دون احتلال أرضه وتلويث سمعته، وقاتل في سبيل حريته وعزة نفسه وإعلاء شأنه.

إننا من خلال هذه الدراسة نستطيع أن نؤكد أنّ مؤرخي الأدب العربي سموا الفترة السابقة لظهور الإسلام بالجاهلية، التي تعني الجهل بالدين الإسلامي والإيمان بالله من جهة، وعلى شيوع الأصنام وانتشار الأوثان من جهة أخرى، وأنّ لفظة الجاهلية التي أطلقت على عرب الجزيرة في تلك المرحلة، لا تعني أيضاً الجهل والتوحش والهمجية، وأنها لا علاقة لها بالجهل، الذي هو ضد العلم، وإنما هي ثمرة الجهل الذي يعني الأنفة والحمية وسرعة الغضب، وبالتالي فقد استُخدمت للدلالة على الطيش والحمق من جهة، وعلى التطرف والمبالغة من جهة أخرى، حتى أصبح الغلو في الشجاعة مغامرة وتهوراً، والإفراط في الكرم إسرافاً وتبذيراً. وخير مَنْ مثل هذا المفهوم قول عمرو بن مكتوم المأثور:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وهنا لا بد من لفت الأنظار إلى ملحوظة هامة، توقّف عندها بعض المفكرين الاجتماعيين، وهي موضوعة الحرب في الجاهلية والغزوات الدائمة عند الأعراب، التي اعتبرت من مخلفات الجاهلية السيئة، من دون أن يفهموا طبيعة الصحراء، وأن يدركوا واقع الحياة، التي اضطرت أبناءها إلى الحرب،

كسبيل وحيد لحل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية.

وكان من المنطق لو أنّ هؤلاء الكتّاب قد توقفوا أمام الحروب المعاصرة، وتطرقوا إلى قضاياها ونتائجها الوخيمة، وبيّنوا موقفهم المبدئي والإنساني، الذي لا يتماشى إطلاقاً مع مبررات إنسان حضارة التكنولوجية والقنبلة الذرية والأقمار الصناعية وناطحات السحاب... وهم يلصقون صفة البربرية والهمجية بإنسان البادية، الذي أجبر على الحرب لشظف العيش وقلة المورد، في حين أنّ طلاسم أصحاب النفوذ والرأسمال في دول العالم باتت لا تخفي الأدوار الخبيثة، التي يرتهنها هؤلاء للقتل والتدمير، وتجعلنا نتساءل عما ننعته من «قبلية»بعض المسالك الاجتماعية الحديثة، التي نرفضها ونستهجنها، ومن أصالة الحياة البدوية وقيمها العالية، وربما تضطرنا إلى قبول المفاهيم الخلقية التي قبلها البدوي بفطرته وطبيعته الساذجة، والتي مارسها عملياً وأصبحت أوفر حظاً وقبولاً من التي أعطتها الكتابات المعاصرة والحديثة، والتي بقيت حبراً على ورق، تعدّت الإنسان وفصمت شخصيته، وجعلته فظ القلب، قاسياً وهمجياً.

من هنا نتساءل عن معنى الحضارة التي يعيشها الإنسان في عصر الاختراعات الحديثة والاكتشافات التكنولوجية المتقدمة، والتقاتل على مصادر الثروة واستغلال البلاد الضعيفة، في حين أن حضارة البادية في الجاهلية بسيطة اكتفى إنسانها بالضروري من أسباب العيش، تطبّع بخصالها، فعُرف من جهة بالفروسية والشجاعة والصبر، ومن جهة أخرى بالكرم والضيافة وإغاثة الملهوف...

يتبيّن من ذلك كله أن حياة العصور الحالية وحضارتها المتمدنة، ليست أحسن حالاً بكثير من بساطة الجاهلية وتطلعاتها الإنسانية ومواقفها المبدئية، وأنّ المعركة بين «جاهلية» اليوم القائمة على التسلط والاستغلال، وبين العقيدة الإنسانية المبنية على العلم والمنطق والعدالة لا تزال قائمة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

فهرست الأعلام

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

المصادر والمراجع

١ ـ **الأدب في موكب الحضارة الإسلامية**: مصطفى الشكعة، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٤.

٢ ـ **أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**: بطرس البستاني، مكتبة صادر بيروت ١٩٥٣.

٣ ـ **أسواق العرب**: عرفان محمد حمور، دار الشورى بيروت ط ثانية ١٩٨١.

٤ ـ **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**: سعيد الأفغاني، دار الفكر بيروت ط ثانية ١٩٦٠.

٥ ـ **الإسلام والوحدة القومية**: محمد عمارة، المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٩.

٦ ـ **أصالة الحضارة العربية**: ناجي معروف، مطبعة التضامن، بغداد ط ثالثة ١٩٦٩.

٧ ـ **الأغاني**: أبو الفرج الأصفهاني، دار صعب بيروت.

٨ ـ **الله والعالم والإنسان**: جمال الدين الأفغاني، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية بيروت ١٩٧٩.

٩ ـ **أيام العرب في الجاهلية**: محمد أحمد جاد المولى بك وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦١.

١٠ ـ **تاريخ الأدب العربي**: بلاشير، ترجمة إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٣.

١١ ـ **التاريخ الإسلامي العام**: علي إبراهيم حسن.

١٢ ـ **تاريخ الأمم والملوك**: الطبري، دار سويدان بيروت.

١٣ ـ **تاريخ الجاهلية**: عمر فروخ، دار العلم بيروت ط ثانية ١٩٨٤.

١٤ ـ **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**: فيليب حتي، دار الثقافة بيروت ١٩٨٢.

١٥ ـ **التاريخ السياسي للدولة العربية**: ماجد عبد المنعم، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥.

١٦ ـ **تاريخ الشعوب الإسلامية**: كارل بروكلمان دار العلم بيروت ط التاسعة ١٩٨١.

١٧ ـ **تاريخ العرب**: محمد أسعد طلس، دار الأندلس ط ثانية بيروت ١٩٨١.

١٨ ـ **تاريخ العرب قبل الإسلام**: سعد زغلول عبد الحميد، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٦.

١٩ ـ **تاريخ العرب القديم وعصر الرسول**: نبيه عاقل، دار الفكر بيروت ١٩٧٥.

٢٠ ـ **تاريخ العرب في العصر الجاهلي**: عبد العزيز سالم.

٢١ ـ **تاريخ العرب في الإسلام**: سهيل زكار، دار الفكر بيروت ١٩٧٩.

٢٢ ـ **تاريخ الموحد للأمة العربية**: علي حسين خربوطلي، الهيئة المصرية العام ١٩٧٠.

٢٣ ـ **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**: آدم متز، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧.

٢٤ ـ **حضارة العرب**: غوستاف لوبون، نقله إلى العربية عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٧٩.

٢٥ ـ **الحضارة في العصر الجاهلي**: حسن الحاج حسن، المؤسسة العربية بيروت ١٩٨٤.

٢٦ ـ **الحياة الاجتماعية عند العرب**: ظافر القاسمي، دار النفائس بيروت ط أولى ١٩٧١.

٢٧ ـ **دراسات في تاريخ العرب، عصر ما قبل الإسلام**: عبد العزيز سالم، دار المعارف القاهرة ١٩٦٧.

٢٨ ـ **دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب**: بندلي صليبا الخوري، دار الطليعة بيروت ١٩٧٧.

٢٩ ـ **ديوان امرىء القيس**، دار صادر بيروت.

٣٠ ـ **ديوان الحطيئة**: الحطيئة.

٣١ ـ **السيرة النبوية**: ابن هشام، دار الجيل بيروت.

٣٢ ـ **شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي**: أنور الجندي، المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٣.

٣٣ ـ **شرح ديوان عنترة بن شداد**: عنترة بن شداد، مكتبة الحضارة دمشق ١٩٥٧.

٣٤ ـ **شعر الحرب في العصر الجاهلي**: علي الجندي، مكتبة الجامعة العربية بيروت ط ثالثة ١٩٦٦.

٣٥ ـ **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه**: عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية ١٩٧٩.

٣٦ ـ **العرب في تاريخ موجز**: فيليب حتي، دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٠.

٣٧ ـ **العرب في حضارتهم وثقافتهم**: عمر فروخ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٨١.

٣٨ ـ **العرب في العصور القديمة**: لطفي عبد الوهاب يحيى.

٣٩ ـ **العرب قبل الإسلام**: جرجي زيدان، مكتبة الحياة بيروت ١٩٧٩.

٤٠ ـ **العرب والإسلام والخلافة العربية نقله إلى العربية أنيس فريحة**: بليابيف، الدار المتحدة، بيروت ١٩٧٣.

٤١ ـ **العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي**: إحسان النص، دار اليقظة العربية ١٩٦٣.

٤٢ ـ **العصر الجاهلي**: شوقي ضيف، دار المعارف مصر.

٤٣ ـ **عوائد العرب**: بولس سبور البولسي، دار الرائد العربي بيروت ١٩٨٣.

٤٤ ـ **فجر الإسلام**: أحمد أمين، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٩.

٤٥ ـ **فجر اليقظة القومية**: محمد عمارة، دار الوحدة بيروت ١٩٨٤.

٤٦ ـ **الفكر السياسي الإسلامي**: مونتغمراوي وات، ترجمة صبحي حديدي دار الحداثة بيروت ١٩٨١.

٤٧ ـ **الفكر العربي في عصر النهضة**: البرت حوراني، دار النهار بيروت ١٩٧٧.

٤٨ ـ **قصة العرب قبل الإسلام**: عمر أبو النصر ١٩٧٠.

٤٩ ـ **الكامل في التاريخ**: ابن الأثير، دار بيروت، بيروت ١٩٨٢.

٥٠ ـ **كتاب الأصنام**: ابن الكلبي، الدار القومية القاهرة ١٩٢٤.

٥١ ـ **كتاب المعرفة**: ابن قتيبة.

٥٢ ـ **الكتاب المقدس**: دار الشرق بيروت ١٩٩١.

٥٣ ـ **الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل**: الزمخشري، القاهرة ١٩٢٥.

٥٤ ـ **لسان العرب**: ابن منظور، دار صادر القاهرة.

٥٥ ـ **محاضرات في تاريخ العرب والإسلام**: عبد اللطيف الطيباوي دار الأندلس ط ثانية ١٩٧٩.

٥٦ ـ **المرأة في الشعر الجاهلي**: أحمد الحوفي.

٥٧ ـ **المرأة في عالمي العرب والإسلام**: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة بيروت ط ثالثة ١٩٨٢.

٥٨ ـ **مروج الذهب**: المسعودي، دار الأندلس بيروت ١٩٦٥.

٥٩ ـ **المفصل في تاريخ العرب والإسلام**: جواد علي، دار العلم للملايين بيروت ط ثالثة ١٩٨٠.

٦٠ ـ **مقدمة ابن خلدون**: ابن خلدون، دار القلم بيروت.

٦١ ـ **مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي**: حسين عطوان، دار المعارف مصر ١٩٧٠.

٦٢ ـ **الملل والنحل**: الشهرستاني، دار المعرفة بيروت ١٩٨٢.

٦٣ ـ **نزهة المتقين**: النووي، شرح رياض الصالحين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦.

فهرست الموضوعات

الفصل الثامن:

صفحات مطوية من تاريخ عرب الجاهلية

إن موضوعات هذا الكتاب تمثل خطاً جديداً في معالجة قضايانا المصيرية والوجودية، لأنها حاولت أن تستقرئ شوامخ الأحداث، وتقف عند شواهدها الإيجابية التي تصلح لإقامة بناء حضاري، ينسجم مع تطلعات الأمة، ويتوافق مع أهدافها النبيلة، في إقامة مجتمع الإنسان، انطلاقاً من إيمانٍ بحتمية إعادة كتابة تراث هذه الأمة، وتنقية صفحاته مما اعتورته من إضافات مشبوهة، وزيادات ملفقة، يمجها المنطق والعلم، ويرفضها التحليل الرصين. . . وإن التركيز على الأحداث الجسام للأمة، والوقوف عند مرافقها التاريخية والحيوية، أجدى بكثير من التحدث عن السلبيات، وتناول الأخطاء والثغرات التي اعترضت مسيرتنا الطويلة .

من المقدمة